
متطايرة قصصية
محمد جلال
سِفر التَّحليق
8

سِفر التَحليق

الكتاب : سفر التحليق

المؤلف : محمد جلال

تصميم الغلاف : أحمد مراد

تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد

رقم الإيداع : 2014/25978

الترقيم الدولي : 978-977-778-011-7

الطبعة الأولى :2015



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

سِفر التَحليق

(متطايرة قصصية)

محمد جلال



على سبيل الإهداء

إلى هؤلاء الذين تلاعبت بهم أهواء الحياة وهواؤها وصمدوا..

أو على الأقل حاولوا..

على سبيل الاتفاق

وصولك هنا يعني أنك قد قبلت بالاتفاق..

ولذا فلنجعل الأمور أكثر وضوحًا.. ستبدأ الآن رحلتك بين قصص السِفر مرورًا بالاستراحات القصيرة على طول الطريق..

ولنبرهن على أنك شريك حقيقي في هذه الرحلة.. فكل قصة تنتظر منك عنوانًا بعد أن تُنهيها، وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن تُخبرني بتلك العناوين في النهاية..

حسنًا.. الأمور بين يديك الآن.. أما أنا فسأختفي قليلاً..

"تريد أن تُحلّق.. فلتتخلص إذن من القذارة التي تجذبك أرضًا.."

توني موريسون


منطقة عبثية
ممنوع الاقتراب والتفكير







إلى عزيزي ربنا..

ببعتلك الرسالة دي وخايف تزعل مني.. بس أنا ببعتهالك لحب طبعا وعارف إنك بتسامح وهتسامحني.. وبصراحة أنا فكرت كتير قبل ما بعتلك الرسالة دي، لأن كل ما سأل بابا يقولي استنى لما تكبر وهتفهم.. وأنا خايف لما أكبر مافهمش بس أكون اتعودت ماسألش..

عايز أعرف ليه بابا بيقولي ماتلعبش مع ألبرتو صاحبي.. ألبرتو شبه الأطفال اللي في الكارتون الإنجليزي، ويمكن علشان كده أنا حبيته على طول.. وبقيت أحب ألعب معاه، وبنطير طيارتنا فوق السطوح مع بعض.. مرة بابا طلع السطح وزعقلي قدام ألبرتو وخلاني أنزل.. وقالي ماتلعبش معاه تاني.. وإياك تروحله بيته.. ولما سألته ليه قالي علشان دول نصارى.. قلتله يعني إيه؟! قالي لما تكبر هتفهم..

طيب يارب مش النصارى دول هما اللي كانوا في المدينة وسمعوا كلام الرسول لما جالهم في الهجرة؟ أنا فاكر الكلام ده كان مكتوب في كتاب الدين، ولا أنا فاهم غلط؟ طب لو مش هما دول، طب إيه ذنب ألبرتو إن باباه ومامته كده؟

هو طلع لقاهم كده، وأنا طلعت لقيت بابا وماما كده، احنا ذنبنا إيه؟ أصل بابا ألبرتو برضه قاله يلعب مع كرولوس الرخم ومايلعبش معايا.. ألبرتو اللي قالي..

أنا مرة رحت مع ألبرتو الكنيسة علشان ألعب في المراجيح.. وماعرفش مين اللي قال لبابا، وطبعا انت عارف هو عمل فيا إيه.. وفي اليوم ده قالي إن ألبرتو هيخش النار ولو أنا لعبت معاه برضه هخش النار.. ولما سألته ليه قالي: علشان المسلمين بس هما اللي هيخشوا الجنة.. ولما سألته ليه؟!.. قالي: ربنا اللي قال كده، ولما تكبر هتفهم..

يعني يارب لما نيجي يوم القيامة الحارس بتاع الجنة.. هيدخل اللي مكتوب في بطاقته «مسلم» بس؟

طيب ما «محمد» اللي معايا في المدرسة بيشرب سجاير وبينط من ع السور وبيخطف السندوتشات من العيال، وضربني قبل كده بالزلطة في دماغي، وهو مسلم.. يبقى محمد هيدخل الجنة وألبرتو اللي بيربي العصافير وبيزرع الجنينة هتوديه النار؟

هو لو ألبرتو وكل اللي زيه وحشين قوي كده.. طب انت خلقتهم ليه بقى؟! طيب لو بابا هو اللي وحش خلقته ليه؟! ولا كتاب الدين اللي وحش؟! ولا انت أستغفر الله سامحني يعني انت اللي وحش؟!

أنا عارف إنك حلو لأنك خلقت كل حاجة حلوة في الدنيا، الشجر والبحر والسما.. بس برضه فيه حاجات تانية وحشة خلقتها.. طب ليه بتخلق حاجات وحشة؟! وليه عمو سالم جارنا مايعرفش يمشي

ولازم يمشي بكرسي أبو عجل؟! أنا نفسي ألعب شوية بالكرسي ده،

بس برضه نفسي أفضل أمشي وأجري..

رغم إن أستاذ الدين خوفنا من يوم القيامة.. بس أنا نفسي ييجي علشان أشوفك، وعلشان تجاوبني على أسئلتى، ولا ممكن تعملي مفاجأة وترد على جوابي؟

كان في حاجات تانية كنت عايز أسألك عليها بس نسيتها.. و كلامي برضه متلخبط ومش مترتب، بس أكيد انت هتفهمني؛علشان انت عارف كل حاجة..

وصحيح أنا ليه جبت درجة وحشة في الحساب مع إني ذاكرت كويس؟!

انت عارف مين

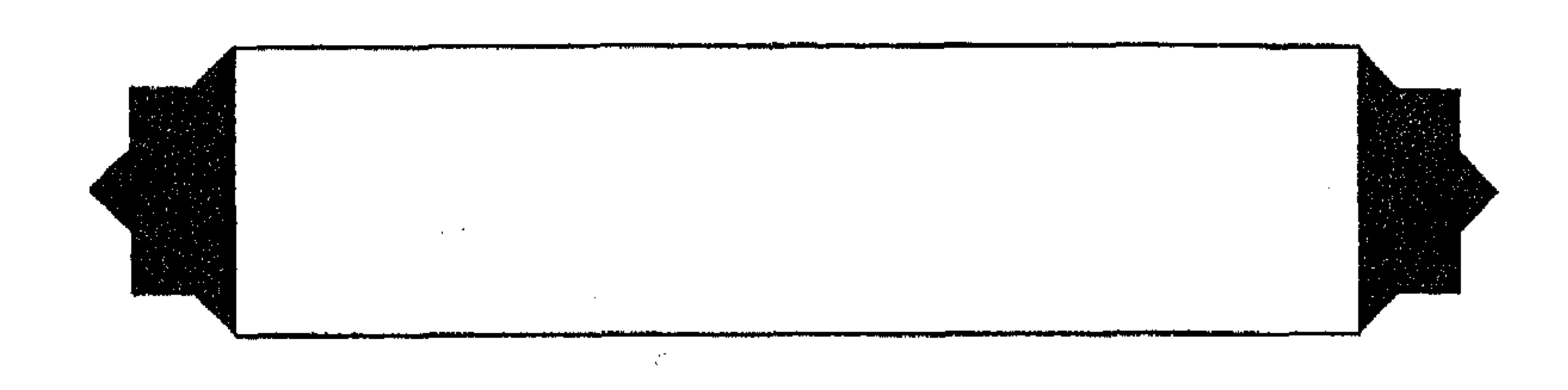
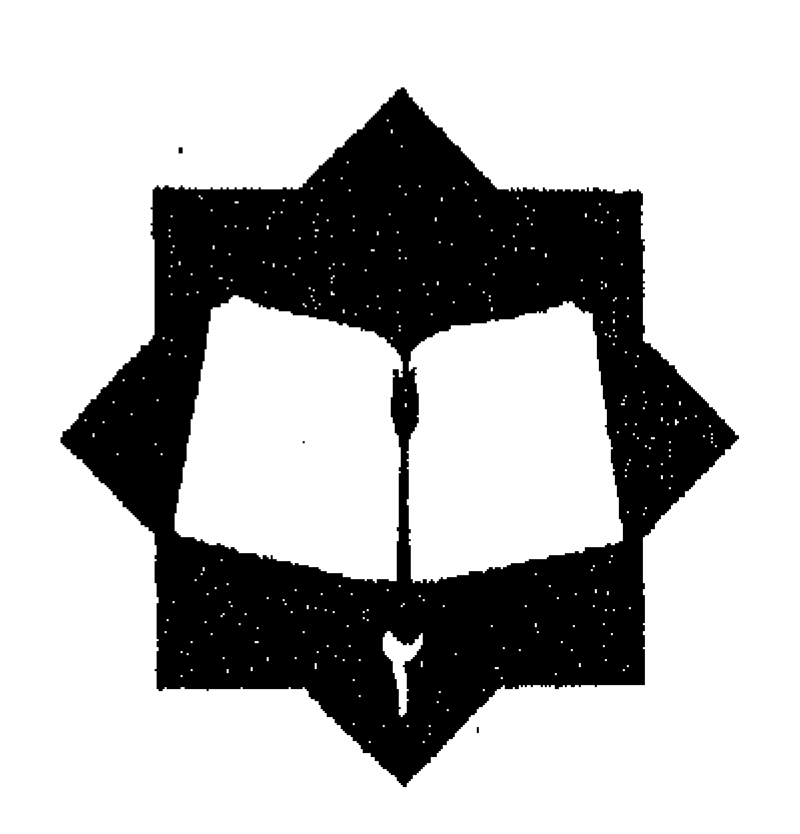
كان هذا هو الجواب بعد إزالة الأخطاء والشطبات وإضافة نقاط فاصلة، وضبط خطوط مائلة..

***

وضع الجواب في ظرف مُعطّر.. وقام بلصقه عل طائرته الورقية المرسوم عليها الفيل الطائر (Dumbo).. قام بإمداد الطائرة ببكرة خيط أكبر بكثير من القديمة..

أطلق الطائرة في الهواء وتركها تشد الخيط حتى نهايته إلى أن صارت نقطة تكاد لا تُرى.. ثم قصّ طرف الخيط، وكله يقين أن الجواب سيصل لعنوانه..

***

أراقبها.. أعلم أنها قد تفعلها الآن في أي لحظة.. لا لا لا.. لا يحق استخدام كلمة (لحظة) بعد.. فالوقت نفسه لم يوجد بعد.. اللحظة الأولى ستبدأ معها.. إنها (النقطة الأولى) التي تحمل بين طياتها كل شيء.. الحياة.. الطاقة.. الوقت.. إنها تفعلها الآن.. تنفجر وتنطلق منها موجات الحرارة والذرات.. أوازن جسدي على لوح ركوب الأمواج.. ترتفع موجة وتُظلّلني، أمد يدي داخلها فتتقطع الموجة وتُطلق نجومًا محبوسة بداخلها.. قبل أن تأتي موجة أعلى وأعلى تحتضنني وتُغرقني تمامًا..

أغوص، وأتمم بيدي على الأنبوب الذي يتيح لي التنفس.. أنبوب يختلط سواده في بياضه بشكل حلزوني يمتد إلى أن يخترق حدود الكون صانعًا ثقبًا أسود حوله.. أتأمل المجرات في الأسفل.. كتلاً من أضواء سيريالية تسكن في الفضاء.. أتنقل بينها حتى أقف على حدود مجرة، وأتناول كوكبًا سارحًا أغرس أصابعي فيه، ثم أضرب قطع الشطرنج العملاقة المتراصة بولينجيًا هناك فأُسقطها كلها من ضربة واحدة (strike).. القطع تُسحب داخل تلك الفتحة وأنا أُسحب معها..

أحاول التمسك بذلك الحبل لأكتشف أنه ثعبان يحمل بين فكّيه تفاحة حمراء.. أتركه وأترك نفسي للانسحاب للخلف.. حتى أجد نفسي أسقط داخل جحر الأرنب الذي يمرّ إلى بلاد العجائب.. أسقط فوق علبة كوتشينة ضخمة تطايرت وريقاتها حتى تصنع سلمًا من تحت

قدميّ.. أُكمل نزولي على سلم الكوتشينة حتى أجد نفسي داخل السحاب، ومن وسط السحاب كانت المراكب ذات الأشرعة البيضاء العظيمة تسير إلى المجهول.. اقتربت سحابة من وجهي فاستنشقتها كاملة على صدري، فإذا ببطني تنتفخ فأطير لألتف حول ذلك الجبل الذهبي، لأجد بعض الحيتان الطائرة التي يتدلى من فم كل منها سيجارة ملفوفة، تشد الأنفاس ثم تطلقها من الثقب في أعلى رأسها مزيدًا من السحب.. آخذ تلك العشبة المزروعة فوق الجبل الذهبي، والتي يبدو أن الحيتان تصنع منها تبغها..

أحد الحيتان يتثاءب فينشر عدوى التثاؤب بين الحيتان، ولم أستطع السيطرة على فمي فتثاءبت أنا الآخر ففرغت بطني دفعة واحدة واندفع جسدي يطير في دوائر غير منتظمة، ووجدت نفسي مرة أخرى أسقط.. هناك عدد من الأرقام تصعد تجاهي بسرعة عالية.. أضبط جسدي كي أمر من خلال الأصفار الخوارزمية.. أمر.. صفر فالآخر.. الأرض تقترب والاصطدام قريب..

سأصرخ.. أكتم صرخاتي.. أحاول أن أرفرف.. واصطدمت وسكن جسدي تمامًا..

(الصراخ يجلبهم.. إياك أن تصرخ)

***

يد تمسح رأسي فأفيق.. أفتح عينيّ بصعوبة حتى تستوعب ذلك الوجه المحاط بتلك الهالة المضيئة.. ما إن أفتح عينيّ حتى يصيح الجمع خلف الرجل ذي الهالة بصيحات هندية.. ثم يجلس بجواري متسندًا على عصاه ويبتسم لي ابتسامة حانية وهو يتناول تلك النبتة من يدي.. ما إن جلس حتى رأيت ذلك الطائر يرفرف من بعيد قادمًا نحونا.. دققت نظري محاولاً أن أتبين معالمه، فلم أتبين.. أمسكت بتلك الشوكة الفضية وبأطرافها المدببة سحبت أسفل جفني لتزداد عيني اتساعًا.. ورأيته.. كان كتابًا يُرفرف بدفتيه وأوراقه، إلى أن سقط في حجر الرجل ذي الهالة.. لمحت عيني الاسم الذهبي المحفور على الغلاف (سِفر التَحليق).. يفتح الرجل ذو الهالة الكتاب.. ومرة أخرى ألمح بعيني أحد الصفحات والتي لم يُكتب بها إلا (إن الدين عند الله الإنسان)، رددت الكلمة في رأسي بينما هو يقتطع إحدى صفحات السِفر، يجذب أطراف الورقة حتى تمددت وتحولت لورقة عملاقة، وبالورقة والنبتة لَفّ سيجارة تُناطح برج القاهرة طولاً.. أخذ أنفاسًا وناولها لبوب مارلي الذي ناولها لأحمد فؤاد نجم الذي ناولني إياها، فأخذت أنفاسًا ثم ناولتها -أعتقد- لجيفارا.. ودارت الجلسة وعلت الضحكات، حتى مال على أذني الرجل ذو الهالة -تلك الهالة التي أصبحت أراها باهتة- وقال:

- انت عارف المشكلة في إيه؟! أقولك في إيه.. إنهم قعدوا يمحصوا ويفعصوا في الكلام اللي أنا قولته وطلعوا منه كلام تاني خالص يليق مع اللي في دماغهم، ويطلعوا بتفاسير وحوارت لكلامي علشان يصعبوا الدنيا ع الناس علشان يبينوا إنهم اللي معاهم زتونة الحدوتة، ويفضل

الناس تحت منهم.. مع إن كلامي واضح وبسيط، قلبوه وخلوه مبرر للحرب مع إنه أصلاً دعوة للحب..

- طب ما تجيب السيجارة دي، ولا انت واخدها عن حب؟!

قالها أحدهم، وانطلقت قهقهات تحمل دخانًا بشتى الألوان صنع سحابة كوكتيلية فوقنا.. وبعد السحابة سحابة لتتصادما وتمطر نقودًا فضية، ويهبط قوس قزح حتى يخترق الأرض، ويترك الأقزام السبعة منجم الفحم ويذهبون للحفر في موضع اختراق قوس قزح بحثًا عن القِدر الذهبي.. وفي الخلفية تنطلق السيمفونية الخامسة.. التفتُ فوجدت بيتهوفن، أردت أن أصيح به (جيت في وقتك)، ولكني تذكرت أنه قد أصيب بالصمم عندما ألّف تلك السيمفونية.. أشرت له بإبهام مرتفع وصعدت درجات السلم الموسيقي حتى أطللت على بشر العالم، بقيت للحظات أراقبهم، أحاول أن أبحث بعيني عن الحاكم.. أُمسك طائرة ورقية عابرة وأصنع منها مخروطًا لأنظر من خلاله.. أين هو حاكم هذه الفوضى؟! من الذي يحكم العلاقات بين البشر؟! ومن المتحكم في تصرفاتهم؟! رأيته رأيته.. يجلس هناك يُدخّن الشيشة التي أشعلها بأجساد بشرية.. إنه عبارة عن جوال من النقود يرتدي نظارة شمسية ويضع سماعات تنقل له صرخات البشر.. أُشير له إشارة بأصبعي الأوسط.. وأتزلج على قوس قزح..

أجد نفسي في أحضان (مارلين مونرو) التي فاق احمرار شفاها احمرار فستانها الذي سمح بالكثير من الاختلاس لصدرها.. لكن ولِمَ الاختلاس

وهذا الوجه لا يترك عينك تعبره؟ تلك الشفاه التي تتمنى أن تُدفن فيها وأن تكون مثواك الأخير.. انطلقنا في رقصة تانجو.. تختلط حركاتنا ما بين ابتعاد وانجذاب حتى تختلط الأجساد.. وتتقاطع الأقدام وتطرق الأرض فلا تتصادم، فهي لجسد واحد.. طرقات.. وطرقات.. ثم جاهدت لأبتعد عنها..

(الاستمرار في الطرق يجلبهم.. إياك أن تستمر)

***

كان أينشتاين يلعب بحروف الـ(E,m,c) يقذفها للأعلى ويستقبلها كالبلهلوان، وكان شعره مصففًا على غير العادة.. حتى جاء سرب من الفراشات الزرقاء ألقت عددًا من القنابل فوق رأسه التي صنعت -القنابل- انفجارًا على شكل المشروم.. فانتفش شعره.. ومن شعره انطلق كائن وحيد الخلية نحو بركة مياه قريبة.. سبح فيها وكلما اقترب من حافة البركة كان يزداد حجمًا وتعقيدًا.. من كائن يسبح حتى كائن يمشي على أربع أرجل إلى كائن يرتفع ظهره ويمشي على قدمين.. إلى إنسان ذي ذقن طويلة.. إنه (داروين).. نزع (داروين) ذقنه لتظهر ذقن قصيرة تُحوّله إلى (جورج كارلين).. ومن خلف (كارلين) ظهر تيرانوصور فاتحًا فكيه المليئين بالأسنان، وفلتت منه زأرة خافتة، فالتفتَ له (كارلين) ثم نظر نحوي، وارتفع خده الأيسر بابتسامة تزامنت مع إطباق فكيّ التيرانصور عليه، ثم تلاقت عينانا وانطلق نحوي.. أثناء جريي التفتُّ، ومن خلفي كان هناك حصان يتجه نحوي يمتطيه (كلينت

إيستوود)، والذي أعطى الحصان لكزة ليُسرع.. ومن خلفه كان (جاندالف) وجيش (جوندور)، وتلقفتني يد ما، ولم أستوعب كيف أصبحت على ظهر ذلك الحصان الخشبي، إنه حصان طروادة المليء بهدايا الكريسماس.. ومن مكان ما جاءت صيحة:

..Cut -

وانقطع الشريط السينمائي الذي كنت أعدو عليه منذ قليل.. أسقط داخل البوسترات، أحاول التمسك بأي شيء.. أمسكت به.. تبًا، إنه الثعبان ذو التفاحة مرة أخرى.. تسقط التفاحة متوجهة إلى رأس (نيوتن)، وقبل أن تصطدم بها يمسكها (فولتير) ويلقيها بعيدًا ليتلاقفها (ستيف جوبز)، يمسحها ويقضم قضمة واحدة..

أسقط على ظهر دب نائم يمتصني ظهره ثم يقذفني في الهواء، أتمسك ببطريق طائر يغطي رأسه ب(آيس كاب).. يطير.. ويطير.. ومرّ فوق السور..

(السور هو الفاصل بين ممكلتك ومملكة الجحيم.. لا تعبره)

إلا هذا السور.. السور من الأعلى يشبه محيط ساعة.. وفي منتصف المحيط عقارب ضخمة تدور.. أتمنى ألا أسقط هنا، ولذا سأسقط بالطبع.. أسقط متوجهًا إلى نقطة المركز.. النقطة تقترب وتقترب حتى تبتلعني.. هناك سلالم حلزونية متقاطعة.. أصعد هابطًا وأهبط

صاعدًا.. إنني الآن في مملكة الجحيم، وسيأتي الفرسان ذوي الزي الأبيض في أي وقت.. يجب أن أهرب..

أتقافز على رؤوس الأهرامات إلى برج بيزا، أوازن جسدي حتى يميل في عكس اتجاه ميله الأصلي، ومنها إلى شوارب (سلفادور دالي)، أسير ببطء حتى أصل إلى برج إيفل ثم إلى برج التجارة العالمي قبل أن ينفجر.. يهبط وأهبط معه.. وفجأه أجد نفسي في غرفة صغيرة كل جدرانها وسقفها عبارة عن أبواب.. أريد أن أخرج.. أمد يدي على المزلاج..

(العبث في المزلاج يجلبهم.. لا تعبث)

***

شهيق طويل وأحبس أنفاسي وأغطس في الأرضية..

الصرير.. الصرير يعني أنهم قد اقتربوا.. أسرع في حركتي وأنبت من الأرض كشجرة.. أتمسك بحبة لقاح وأطير معها.. (سبايدر مان) يتلقفني ويلقي بي إلى (سوبر مان) الذي يطوحني إلى (بات مان)، أقف مع بات مان الذي لا تكف عباءته عن تقطيع الهواء من خلفه، ونأخذ نظرة إلى المدينة قبل أن ينطلق هو بعد أن وجّه المستغيثون شعاره إلى المريخ..

إنهم أمامي الآن، الفرسان.. يقتربون مني، أقاتلهم بحركات ماتريكسية.. لا أملك أي أسلحة وهم معهم كل شيء.. أفرد يدي وأقفز نحو الأرض،

ولكن أياديهم تستطيل حتى يتمكنوا مني، أحاول الذوبان من بين أيديهم ولكن دون فائدة..

يجرونني جرًا إلى غرفة القرابين.. أقوياء بحق، هكذا يحصلون على وظائفهم اللعينة.. يقيدونني إلى منضدة القرابين.. يضعون بين أسناني قطعة خشبية، ويدخل قائد الفرسان يقرأ من دفتر عدة ملحوظات.. ثم يشير لهم إشارة إلى رأسه.. فيضعون على رأسي (الناكح) الذي يغتصب رأسي حين يقوم بعمله.. ثم يقول لهم القائد:

- ابدأ بـ 75 فولت..

ازززززززززززززززززز

وبدأ الناكح في فعلته، يغرز قضيبه بين فصيّ مخي ويُلقي بعقلي على خطى طرق حُددت خاناتها بعلامات تعجب وعلامات استفهام..

لماذا لم يجعل الأمر واضحًا أكثر من هذا؟!

ازززززززززززززززززز

كيف وافقنا لها أن تتحكم بنا وتُفسد حياتنا؟!

ازززززززززززززززززز

ماذا هناك بعد العبور من هذا الجانب؟!

إززززززززززززززز

أي حياة وأي وطن هذا؟!

إززززززززززززززز

متى يتركونني؟! ولماذا يُصرّون على إخراجي من مملكتي؟!

إززززززززززززززز

؟!؟

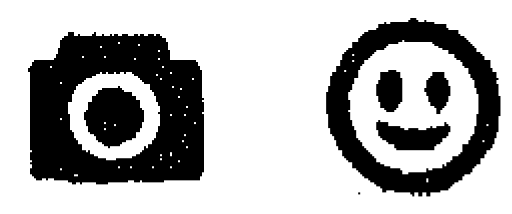
؟

!

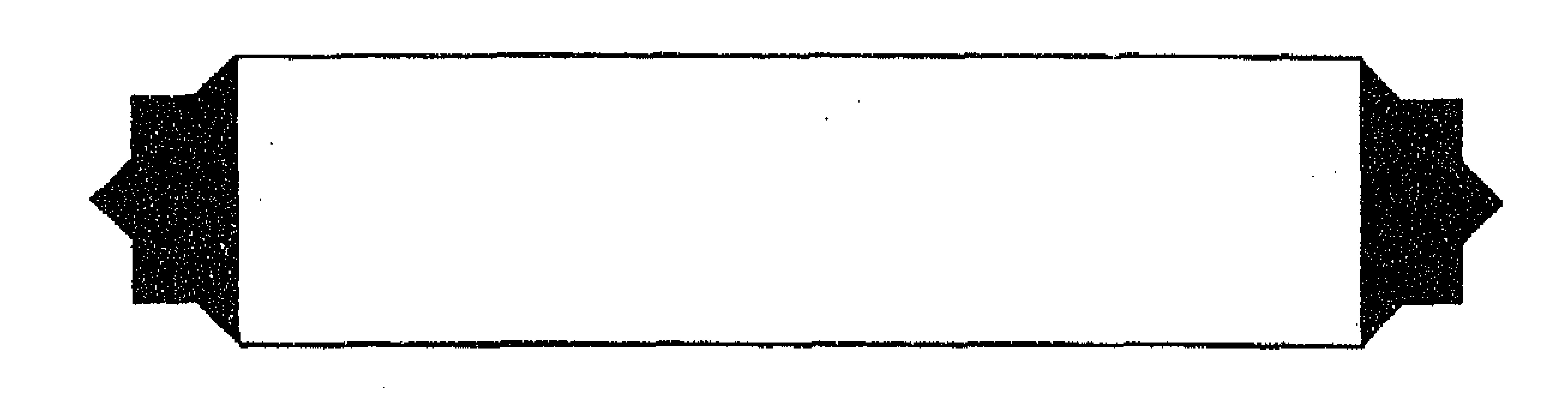
؟؟

!!

؟؟؟







٣

ساكتب ليلاً مع قهوة المساء..

سأكتب نهارًا مع شاي الصباح..

أشرب القهوة وأشرب الشاي ولا أكتب..

سأكتب على الورق..

سأكتب على الكمبيوتر..

أشخبط على الورق وأفتح الفيسبوك ولا أكتب..

الكاتب يهرب من الكتابة بطبعه. لا أعلم إن كانت هذه قاعدة عامة أم إنها تخصني فقط.. ولا أدّعي أيضًا أنني (كاتب)، ولكني فقط أكتب، وكتب يكتب فهو كاتب اضطرارًا..

ما أعلمه حقيقة أن كوب نيسكافيه بعد الظهر أوشك على الانتهاء والورقة بها سطران مشطوب عليهم (~~مرت ساعات في انتظاره ولم يأتِ~~) (~~صوت حبات المطر التي تطرق الزجاج وصوت الرعد في الخارج ي~~) ماذا بعد؟! لا أعلم..

أين ذهب الوحي اللعين؟! هل ضلّ طريقه؟! أم إنه لا يوجد وحي أصلاً! أتناول حبة من الأركليون تُساعد على التركيز وربما ترسل رسالة للوحي لتُخبره الطريق.. لا شيء.. أم إنني أصبت بـ(Writer's block) والتي

جعلت كثيرًا من الكُتّاب يتوقفون عن الكتابة لفترة.. وأصيب بها نجيب محفوظ مرة بعد ثورة يوليو ومرة قبيل فوزه بنوبل..

أنام هربًا ثم أستيقظ، أهرب من الكتابة للقراءة، أهرب من القراءة للفيسبوك، أهرب من الدردشة لآخذ دشًا ساخنًا، أفتح بعده المياه الباردة على رأسي لأقوم بسترتها.. أخيرًا أجلس أمام شاشة الكمبيوتر.. أم أكتب على الورق؟! كفاي حججًا فارغة.. سأكتب الآن.. إشارة الكتابة تومض.. تومض..|

فجأة أجد نفسي أمام الثلاجة بدون سبب مقنع، أفتح الثلاجة، أنظر داخلها، أُغلقها.. أفتحها مرة أخرى، هناك (سنيكرز) لا أعلم لمن هي.. سأتناولها ثم أبحث في هذا الموضوع فيما بعد...

أجلس مرة أخرى أمام لوحة المفاتيح.. لا شيء.. صحراء خالية في رأسي لا يوجد بها حتى غراب ينعق.. أحرك يدي على الكيبورد.. نعم لازلت أستطيع الكتابة.. أين هو ما يُكتب؟! أتململ في جلستي.. ثم أقوم.. على المنضدة بعض الأوراق التي كتبتها منذ فترة لا أذكرها.. بها الكثير من القصص وُئدت قبل أن تتنفس.. لعلي أجد بإحداها طرفًا لقصة أشدها..

(قف مكانك.. صرخ بها الضابط وهو يجري نحو المتهم وفوهة مسدسه تسبقه...)

(أحتاج أن أغيّر شيئًا ما في حياتي.. مرّ عليّ هذا الخاطر وأنا...)

(أصوات طرقات قطع الدومينو.. وغليان الشيشة من حولي مع صوت صبي القهوة "أيوة جاااي"...)

لا أطراف.. ولكن هناك فكرة جاءت من هنا وهناك.. فكرة تُخبرني بوضوح (يا عزيزي أنت تحتاج لتغيير مكان الكتابة).. وأرسلت لها خاطرًا يخبرها (شكرًا على النصيحة.. وجاري التنفيذ).

***

علي القهوة أجلس.. أنت تعرف الأصوات التي ذكرتها من 4 سطور.. لازالت كما هي.. فدعنا منها..

هذا هو ثالث حجر (سلّوم) ألقيه في صدري بعد أن تركت القلم على الورقة.. وظللت أراقب قفزات الأحجار على سطح مخي.. يأتي (علاء) ليغيّر الحجر ويرحل..

لن أكتب هنا بالتأكيد.. الضجيج يمنعني عن التفكير في أي شيء.. ربما أحصل على فكرة هنا، وأكملها فيما بعد.. أي موقف، شخصية، تفصيلة.. أنفاس الشيشة تتبختر في الهواء ومعها خيوط التفكير..

هل الأمر يستحق كل هذا الإرهاق؟! تعب الكتابة يليه تعب النشر.. ودفع النقود لتنشر كلمتك.. هل كلمتي تستحق أصلاً أن أدفع لها النقود.. هل أجد ناشرًا يخبرني أن كتاباتي لا تصلح ويعدد لي الأسباب،

فيرحمني ويرحم القارئ.. أم إن القارئ سيقوم بعملية الفرز هذه، أم ماذا؟!

ولِمَ أنشر كلماتي؟! هل هي الغاية أم الوسيلة؟! والفوز في أن يقرأ الناس كلماتي.. أم أن تكفل لي الكتابة شهرة ونقودًا؟ في الحقيقة أن الكتابة ربما تُوفّر هذين الشيئين للصفوة ممن فهموا اللعبة.. أما أنا فلا أفهم شيئًا..

وحتي جلسات مثقفي وسط البلد لم أستطع التكيف معها.. فكل جلساتهم عبارة عن لعنات متفرقة يصبونها على الجميع؛ أحمد مراد، علاء الأسواني، يوسف زيدان، عمر طاهر، مصطفى محمود.. فالكل جهلة مدّعين أما هم فهم من يملكون الثقافة الحقيقية.. ولأنهم يرون أن ذلك الشعب جاهل مغيب لن يفهم ما يكتبون.. فهم بالتدريج يكفّون عن الكتابة ويتحولون سريعًا إلى آلات لا تفعل شيئًا سوى اللعن ومصمصة الشفاه..

أما أنا فأريد أن أكتب..

هلاوس.. صداع.. كآبة ولا كتابة..

يأتيني خاطر.. أمسك القلم ثم أتركه، وبجواري عجوز صعيدي أصيل متلحف بشال يراقبني كل فترة، ويبدو أنه لاحظ أني لاحظت مراقبته.. فمال عليّ.. وقال بابتسامة أبرزت أسنانًا صفراء وسنة ذهبية، وبحروف عطشة كلما سنحت فرصة:

- انت جاي تذاكر في القهوة يا ولدي؟!

-... لا لا لا.. أنا بس بفكر في حاجة..

- مشغول بإيه يا ولدي.. دي الدنيا منفاتة..

لحوح هو وملول أنا..

- بفكر في قصة..

نظر لي بتعجب ثم شدّ أنفاس من معسله.. ثم التفت لي وقال:

- طب ياولدي ما أحكيلك قصتي.

وبدأ يحكي، وجاء (علاء) يستبدل الحجر.. ولاحظ حديثي مع العجوز الذي يبدو أنه سمعه كثيرًا من قبل..

(أنا يابني من مواليد الصعيد الجواني.. من قنا.. في خميس من أول شهر في السيتينات جيت ع القاهرة أنا وأبويا علشان نسمع الست.. الست أم كلثوم.. عارفها طبعًا.. كان الناس بييجوا من كل مكان في المعمورة.. والفقرا حالتنا كانوا بيناموا بره المسرح على الرصيف علشان يسمعوها.. أبويا كان مغرم بيها وببنت المعز.. بس بنت المعز قاسية وغدارة.. وتهت من أبويا في وسط الزحمة......)

حكى وحكى.. وأصررت على دفع كوب شايه.. وحصلت في المقابل على أشياء كثيرة جيدة بعد أن وضعت قصته في الغربال.. وبقي في الغربال

شيء كبير استحوذ عليّ أكثر.. فكرة أكمل بها مجموعتي القصصية.. ولكن أحتاج لعدة أشياء قبلاً..

***

قلم فلوماستر أسود + فرخ ورق أبيض + جنيهات تكفي عددًا من أكواب الشاي

***

بورقة بيضاء كُتب عليها "احكيلي حكايتك وأعزمك على واحد شاي:)" أقف بالقرب من قهاوي وسط البلد.. البعض ينظر لي فأقابله بابتسامة فيبتسم لي ويكمل طريقه.. إحدى الفتيات تقوم بتصويري فيديو، وينتهي الفيديو بشخص يقف معي نتكلم قليلاً ثم نتوجه للقهوة ونطلب الشاي.. وحصل الفيديو على عدد من إعجابات متابعي اليوتيوب..

حكى الرجل حكايته.. ثم قمت وعدت بشابة في أواخر الثلاثينات.. وشربنا الشاي.. ثم قمت ومزح معي بعض الأطفال أو بالأصح سخروا مني.. وانتهى اليوم..

بالطبع الإحراج كان يصيبني في كل لحظة أقف بورقتي.. ولكني تركته جانبًا وأكملت ما أنتويه.. قصص وحكايات وأكواب شاي.. وصحفي قام بتصويري لتُوضع الصورة تحت مانشيت "يقدّم الشاي لمن يخبره

بحكايته". وبعدها مجلة شبابية أجرت معي حوارًا تحت عنوان "كاتب شاب يبحث عن الوحي".. تضاعف أصدقاء الفيسبوك.. والتعليقات كانت أغلبها من نوعية "انت مجنون آخر حاجة.. صباح اللسعان"..

أستمع وأسجل، الناس ينظرون، ومكاني أصبح معروفًا، ودمائي أصبح يجري فيها الشاي يزاحم الكرات البيضاء والحمراء..

أفكار وتفاصيل وأماكن وذكريات بدأت تُشكّل قصصًا أكتبها في المساء.. وأشرب الشاي في الصباح.. جاءني عدد من الرسائل على الفيسبوك من مسئولين بدور نشر يعرضون عليّ النشر لديهم..

ومع كل رسالة كان يقوم قلبي ليرقص زقططتًا.. وبهذه الزقططة أكملت كتابي واخترت عنوانًا مؤقتًا هو ماكان مكتوبًا على الورقة، ولكن يظلّ هناك شيء ناقص.. هناك قطعة بازل ناقصة تُكمل اللوحة..

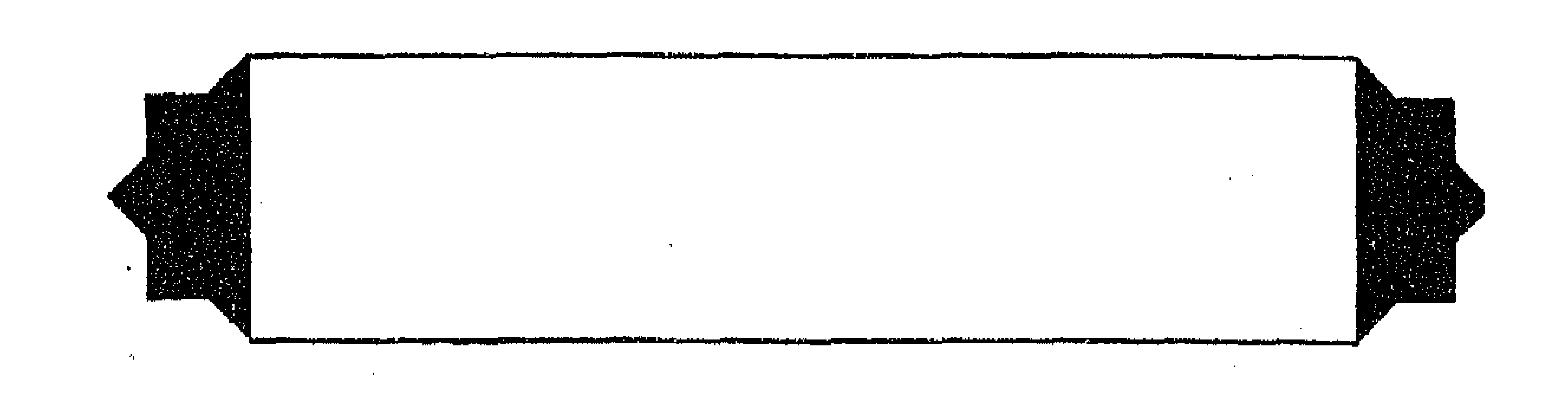
بعد غياب عن القهوة لفترة أعود..

أجلس في جلستي التي كانت معروفة لي في القهوة.. علاء يفتقدني.. وجلست وحيدًا أتذكر.. أرفع أغطية الحياة وقيود الزمن عن مخي.. وأحفر عميقًا عن حكايتي التي أنساها أو أتناساها.. أجمع أشلاء القصة التي ربما تحتوي على نجاح وفشل.. اتصال وانفصال.. على اقتراب واغتراب..

تذكرت الكثير، وطلبت كوبين من الشاي.. بادلني صبي القهوة بنظرة تعجبية! ثم ذهب لإحضارهما..

وبدأت أكتب..

***




٤

- تعرف تجيبها فيه من هنا؟!

قالها طفل لرفيقه ثم ألقيا الأحجار نحوي.. بقدم عرجاء أحاول أن أختفي عن أنظارهم.. حجارة تلو الأخرى تصطدم بالأرض بجواري.. أتفادى واحدة كادت أن تصطدم بظهري وأختبئ خلف سور الأشجار، أراهم وهم يبحثون بأعينهم عني ثم يرحلون ليبحثوا عن آخر ينغصون عليه حياته..

كيف أصبح الأطفال هكذا؟ أم كيف أصبحت أنا هكذا؟ قبل أن يضرب العجز والهزال جسدي كان الأطفال يخافون أن يعبروا من أي طريق أتواجد فيه، وأطلقوا عليّ (عنتر) تعبيرًا عن القوة.. كانوا يخافون من أن يلاطفوني، فما بالك بأن يشتروا عداوتي.. كنت بلطجيًا حقيقيًا قادرًا على إيقاف شارع على رأسه.. بلطجي هرب عدة مرات من رصاص الداخلية ويجرح من يفكر أن ينظر إلى ما في يده.. لقد رحلت تلك الأيام -بعد الحادثة- إلى الأبد.. (ما بقاش فيه تقدير للأشقية)، أقولها بصوت خفيض وأنا أهزّ رأسي التي أحكّها حكّات متتالية.. ثم أُكمل مسيري..

أحمل كيسًا يحتوي على بعض الطعام متوجهًا به إلى مسكني.. سكن مؤقت كالعادة قبل أن يأتي من يُفسد سكينتي وسكوني ويجعلني أعود للترحال أنا وزوجتي وأولاد لم أعد أعرف عددهم.. إحدى البنات

هربت، الأولاد دومًا في الشارع، أحدهم مات مرضًا، ومَرَة لا تفعل شيئًا سوي الخلفة ومراعاة الصغار.. ولم تعد تفعل لي شيئًا إلا أن تستسلم لي عندما تفور شهوتي.. لماذا؟! لتُنجب المزيد من الأولاد، ابنة الساقطة..

لنستريح بجوار هذا الحائط قليلاً.. ألم السير بقدم عرجاء لا ينافسه إلا ألم قلب مريض.. ليست استعارة لو جال هذا في رأسك.. الحق أن قلبي أصبحت سكاكين الألم تُقطّعه مع أي مجهود، ولأني لازلت مطالبًا بإطعام أفواه لا تشبع فلازلت مطالبًا بالتحمل.. طلبت من ابنة الساقطة أن تخرج يومًا لتأتي هي بالطعام فنظرت لي ممتعضة وقالت:

- ومين يخلي باله من العيال! قوم يا دكر قوم..

وتكمل نومها وترفع رجلها.. ابنة كلب حقيقية.. هل تعرف ما اسمها؟! اسمها بيلا.. هع، ابنة الشحات تظن نفسها من المعادي.. الحق أنه كان يجب أن تُسمى بلوة.. لم تُحضر لي إلا الفقر بنت الهرمة..

- امشي.. هشش..

يقولها ذلك الرجل وهو يُلوّح ناحية وجهي بحذائه، فقد كنت أستند لباب محله.. أقصر طريق الشر وأرحل مكملاً طريقي.. تمر بجواري تلك

المرأة، وما إن تلمحني حتى تنحني بخطواتها مبتعدة بحركة خاطفة، ثم تُخفي توترها بأن تُمسك طرف نظارتها الشمسية.. أنظر لهيئتي الرثة في بقعة مياه جانب الرصيف.. هل تعلم كيف ينحني الشخص مبتعدًا عن نفسه؟!

أعرج وأعرج.. متفاديًا وابلاً من الأحجار والسباب ونظرات القرف.. حتى أصل إلى ابن القحبة.. الطريق السريع..

***

الطريق السريع.. أفقدتني إحدى سياراته قدمي في المرة الأولى.. يجب عليّ النظر هنا وهناك لأتجنب تلك الوحوش الحديدية.. أخطو خطوة.. و(بوق سيارة) يجعل قلبي يتوقف للحظة، وأرجع تلك الخطوة بسرعة، وأتماسك عن فعل تلك العادة القديمة حيث كنت وأصدقائي نجري خلف أي سيارة ونصيح دون أي هدف..

الطريق خالٍ الآن.. ها.. خطوات عرجاء أحاول أن تكون سريعة.. و...

***

كانت السيارة معبقة بصوت (Rihanna) ودخان السجائر.. حين صاح ذلك الشاب في صديقه وهو يمدّ يده ناحيته، حتى إنه أمسك المقود دون أن يدري:

- حاسب.. حاسب.. حاسب..

يحدث التصادم.. وترتفع السيارة وتهبط على منحنى جسد المصدوم، حتى تتوقف على بعد عدة خطوات.. ويهدأ صوت (Rihanna) تدريجيًا.. تُفتح أبواب السيارة ويخرج الشابان.. يتوجّه صاحب السيارة بسرعة إلى مقدمتها، ثم يأخذ لفة سريعة حول السيارة ويرجع إلى المقدمة، وينثني متأملاً ذلك الكسر:

- فشخ الاكصدام ابن الوسخة..

- يا عم.. ما أنا عمال أقولك حاسب وانت موقع ودانك..

- (يزفر بضيق)

- متقلقش فيه واد سمكري عارفه هيظبطهالك..

- طيب.. يالا يا خويا خلينا ننجز.. كانت ناقصة هي..

- والكلب ده هنسيبه كده؟

- أديك قلت كلب.. سيبه يا عم بلاش قرف..

- طيب يالا..

يركبان السيارة.. وصاحب السيارة لازال يزفر ويطقطق بلسانه كل فترة..

- الواد ده عفريت في السمكرة هيخليهالك زي ما كانت، وكمان...

تخفت الأصوات تدريجيًا مع ابتعادهما.. أما الكلب فلن يلاحظه أحد حتى يدخل في مرحلة العفن فيتذكره من يمر قائلاً:

- إيه الريحة النجسة دي؟!

***

انتهت لعبة الشطرنج بالخسارة..
ووقفنا نحن حائرين نبحث عمن نلومه..

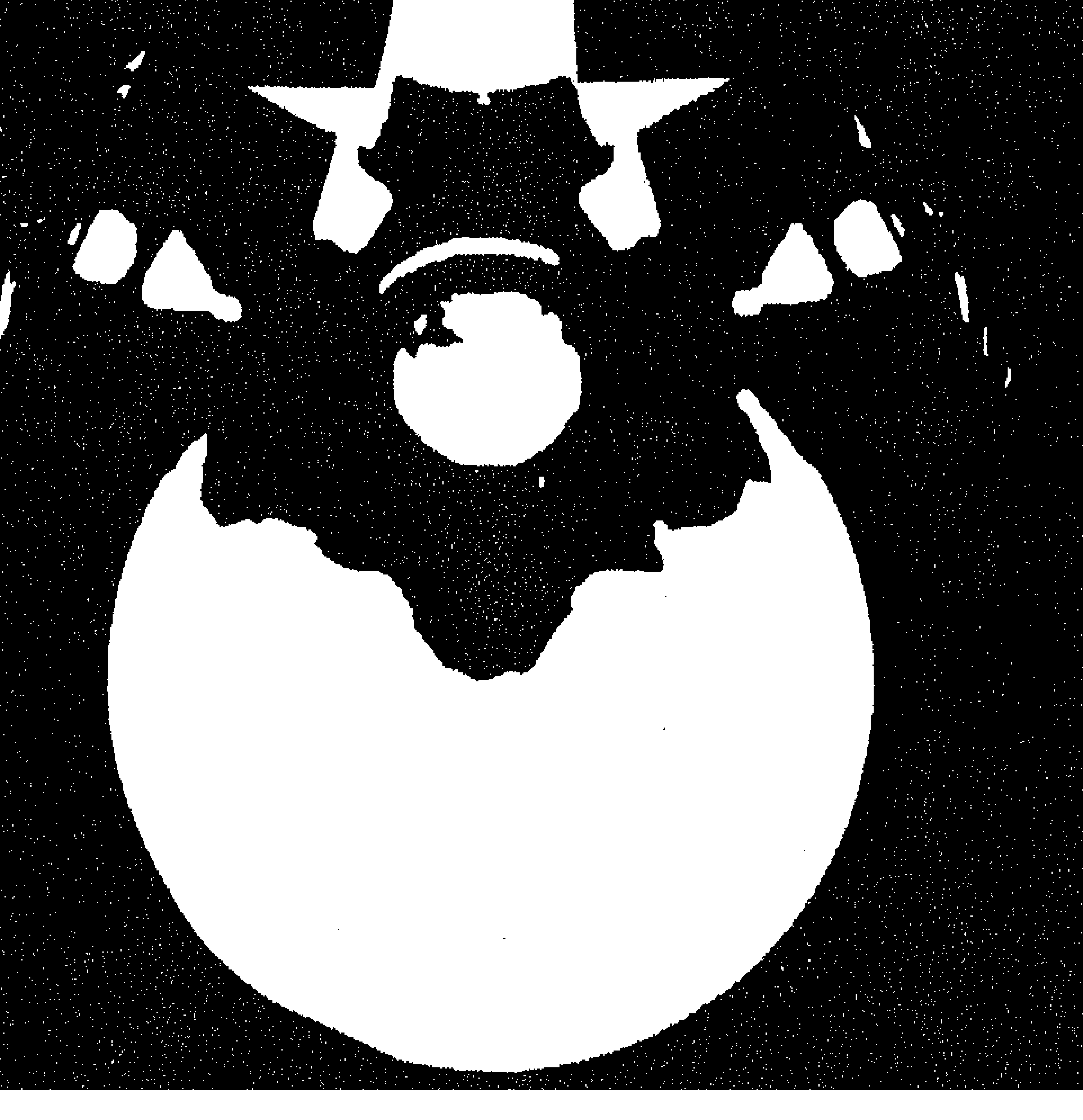
هل نلوم قطع الشطرنج على اللعبة الخاطئة؟!

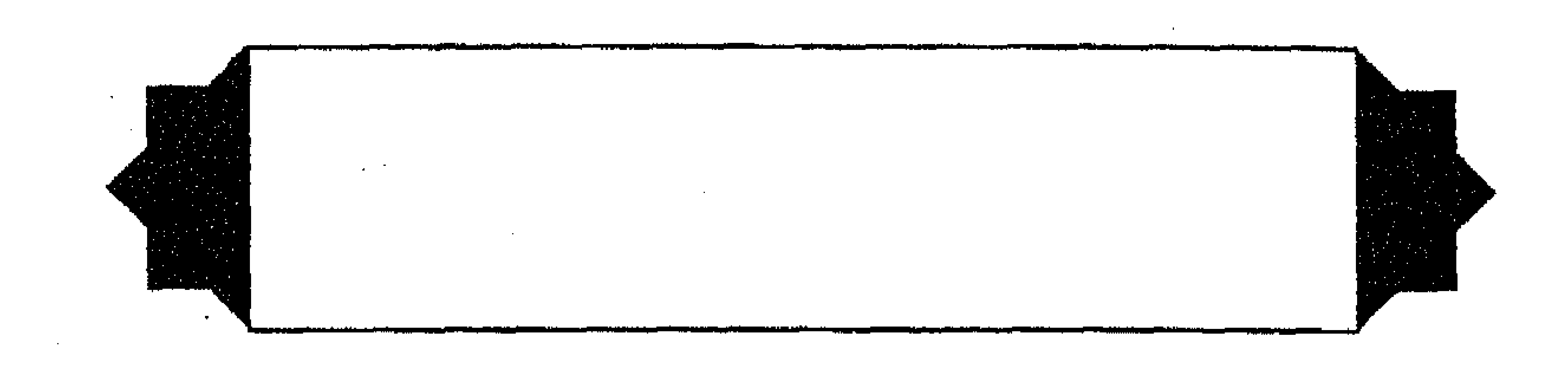
أم نلوم من لعب بها؟!

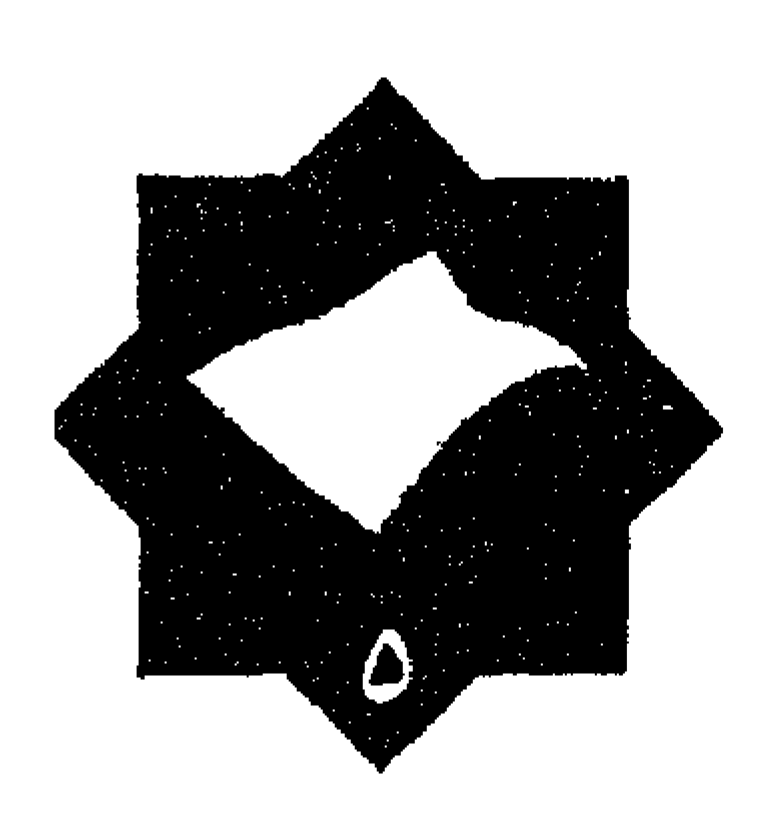
أم نلوم أدمغتنا غير القادرة على استيعاب أن اللاعب كان يقصد الخسارة لغرض آخر ضمن لعبة أكبر؟!

أم نلوم قطع الشطرنج التي وافقت على أن يتم اللعب بها؟!

أم نلوم قوانين اللعبة؟! أم نلوم أنفسنا أننا اهتممنا أصلاً بهذه اللعبة؟!






٥

تُكمل الشمس رحلتها الأبدية.. وتنشر سجادة من الضياء على الأرض، تزداد في كل خطوة تخطوها في تلك الرحلة.. يتسلل بعض من أشعتها تحت الكوبري، لهرب ظلّ الكوبري ويختبئ على جانبيه، وتبقى قطع من الظل اختبأت تحت الجسد الصغير الذي توسّد فوطة صفراء قذرة تحت رأسه..

تتحس أشعة الشمس وجهه بأيدي لاسعة، وبأصابعها تفتح عينه الغامضة.. فيُغمض عينه ويفتحها مرتين، يمسح وجهه ويتأكد أن فوطته ومصدر لقمة عيشه بخير.. ويخطو نحو الشارع..

يخطو ببنطال أذابته الشمس ومزقته الأرصفة.. وقميص بالٍ تتناثر عليه بقع الزيت.. وظهر موشوم بتصاميم بلاط الطرقات.. وجسد نحتته الشوارع التي لم يعرف غيرها.. فهو ابن شارع حقيقي.. لحظة أن أدرك الوجود وجد نفسه في الشارع.. بدون ماضٍ، بدون مستقبل.. فقط هو اليوم ولا شيء غيره..

تعلّم من الشارع تقبيل النقود ووضعها على رأسه.. تعلّم أن يكون وحيدًا وأن لا يُصاحب الأشقياء الذين يزورونه كل فترة ليسقطوه أرضًا، ثم يُهدوه بعض الركلات ويأخذون فضيّاته ليتعاركو عليها بعد أن يتركوه..

تعلّم ألا يُجادل.. يسقط قبل أن يُسقطوه.. ويتوجع قبل أن يضربوه ويناولهم النقود قبل أن يُمزّقوا ما تبقى من بنطاله.. ثم يذرف دمعة

تعلّم أن يسقطها داخل جسده لا خارجه، وهو يترك للأشقياء هذا المكان ويخترق شوارع أخرى ليبني وطنًا جديدًا.. حتى يأتي أشقياء جدد فيذرف دمعة للداخل و يذهب ليبني وطنًا آخر..

ولأنه اليوم ولا شيء غيره فلا وقت للتذكر.. إنما هو وقته ليسبح بين كتل السيارت التي تتوقف دائمًا دون سبب مقنع، يستنشق عوادمها ويمسح غبارها بفوطته آملاً أن تُناوله ما يكفي ليعيش اليوم..

يمسح زجاج تلك السيارة ال128.. فيشاور له ذلك الأصلع أن اذهب.. ثم يأخذ الأصلع ملعقة من علبة كشري بلاستيكي..

يمسح زجاج تلك المرسيدس.. ويتوجه للسيدة المشغولة في التليفون، والتي تذهب دون أن تراه بعد أن انفتح الطريق بدون سبب مقنع.. يمسح زجاج تلك الجيب المحتوية تلك العائلة الصغيرة، والتي بها زوجة تُخبر زوجها أنهم يجب أن يذهبو لزفاف بنت عمتها وعليه أن يؤجل شغل ذلك اليوم.. يقف الجسد الصغير جوار شبّاكهم صامتًا بنظرة خاوية تمتلئ بطفل صغير مبتسم في الكرسي الخلفي يلعب بلعبة (فيديو جيم)، فتنتقل الابتسامة تدريجيًا له.. ويقطعها جنيه فضي وانغلاق الزجاج.. يقف الصغير لحظات.. ثم يُكمل سباحته، ربما يقابلك ولكنك لن تلاحظه أبدًا..

***

تقاذفته الشوارع حتى ألقته أمام أحد المطاعم التي عندما يراها يعرف أنه سيأكل.. يمسك بأسطوانة طلاء ملقاة على الجانب ويتوجه ناحية صندوق الزبالة.. يقلب الأسطوانة ويقف عليها..

ينفتح أمامه عالم لا يراه إلا القليل.. القليل ممن لعب الشقاء بجيناتهم فأكسبهم عيونًا ترى ما خلف الأشياء، وأنوفًا لا تتأفف.. يرفع ذلك الكيس الأسود لتظهر علبة بها بعض الطعام تركته فتاة تأكل بأطراف أصابعها، لا تأكل كثيرًا لتُحافظ على وزنها فتصبح أكثر صحة فتعيش أكثر، وتترك -دون أن تدري- فرصة لغيرها ليعيشوا يومًا أكثر..

يمسك العلبة منتشيًا، ولكنه يتوقف عندما يرى ما تحتها.. ملف شفاف به بعض الأوراق وقلم فلوماستر أسود.. يترك العلبة ويأخذ الملف ويذهب باحثًا عن مكان يحوي فرحته..

***

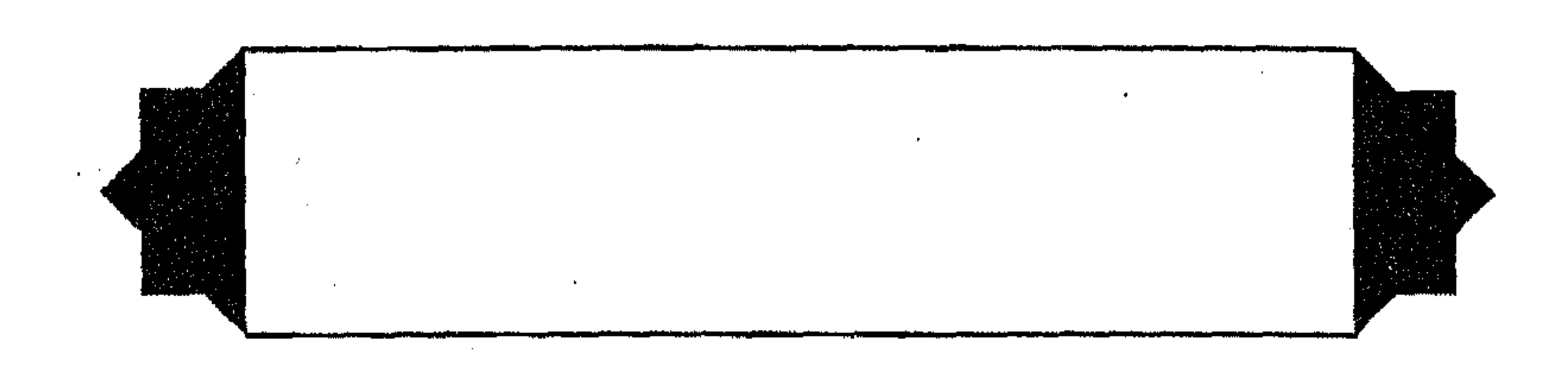
سلّم ظهره لحائط في جانب البناية.. وافترش الأرض.. أخرج القلم والأوراق بسرعة.. كان قلمًا مريضًا جفّ حبره ولكن بقي فيه بعض الروح.. أخرج ورقة قلبها على الجانب الأبيض، رسم خطًا مائلاً لليمين وآخر لليسار يتقابلان في نقطة، فتصبح "سبعة" باهتة يُتوّجها بنصف دائرة.. ويكملها خياله فتصبح (آيس كريم).. يبتسم ثم يكرمش الورقة ويلقيها فيركلها الهواء..

يخرج ورقة أخرى، يرسم مستطيلاً ثم يضع به بعض الدوائر.. ويترك المهمة لخياله فيراه (فيديو جيم).. تتسع ابتسامته ويكرمشها ويلقيها، فيأخذها الهواء إلى صاحبتها..

تتسع عينه ويفكر في شيء ما.. يُخرج ورقة أخرى يرسم بها خطوطًا لا معنى لها.. وورقة أخرى يمنحها بعض الخطوط.. وورقة.. وخطوط.. وأخرى.. وأخرى..

لا شيء حوله الآن إلا الأوراق والرصيف الذي يُرتب عليه أوراقه.. يضع هذه هنا وتلك هناك، واحدة في هذا الجانب وأخرى في الجانب الآخر.. ينظر للورق بينما يُكمل خياله الخطوط لتُصبح صورة منزل.. ويرتفع جانبي شفتيه فتظهر أسنانه.. يقف فوق الورق ويدور فرحًا.. ثم يُغمض عينه وينام.. بينما يبدأ الهواء باللعب في أطراف الورق..

***




٦

- كح.. كح..

انطلقت مني سعلات خفيفة بعد أن فَتح الباب.. فالتفت إليّ وترك الكلمات اللزجة تخرج من أسفل شاربه الأبيض العظيم:
- معلهش يا بشهمندز.. أصل الاستراحة مقفولة من قيمة شهرين.. بس أنا وضبتلك الأوضة والسرير أول معرفت إن في.. حد.. جـ.د.. يـ.د....

الكلمات تدخل أذني كسلاحف مصابة بشلل الأطفال.. عيناي نصف مغلقة ولم أعد أشعر بآلام ظهري بعد أن انفجر مقياس الألم.. أفتح فمي طالبًا نَفسًا يبقيني للحظة أخرى واقفًا.. فأُطلق مزيدًا من سلاحفه نحوي..

(نورت العما...ر..ة...)

تبًا له.. إن شاربه قد بدأ في التمدد.. (الحمام تشطيب نضـ.يـ.ف).. ولا زال يتمدد..(الأوضة المقفولة دي متخزن فيـ.هـ.ا) ويتمدد حتى إني بدأت أغوص فيه.. وطاقيته البيضاء أعجبتها اللعبة فتمددت حتى أصبحت كجبل جليدي سيصطدم به عقلي بعد قليل ليجاور التايتنيك.. الهواء يخرج ولا يعود، يبدو أنني أغرق.. أي هواء رجاءً! انتشلني من غرقي قوله (ولو عايز أي حاجة أنا تحت أمرك).. أخذت نَفَس النجاة ونتدته 10 جنيهات.. أفلت حقيبة السفر، وألقيت بنفسي على السرير، وغالبًا أخبرته أن يُغلق الباب خلفه.. سحقًا.. هل أعطيته

10 جنيهات أم 20؟! ظلّت العشرين جنيهًا تدور أمام عينيّ المغلقتين حتى اسودّت تمامًا..

***

استيقظت على صدى صرخات صفير قطار قدومي الذي لازالت صفارته وأصوات محركاته تتردد في أذني.. جلست على السرير وظللت للحظات أحاول تجميع بازل يجيب أسئلة الاستيقاظ في مكان غير معتاد بعد سفر.. أين أنا؟! لماذا جئت هنا؟! ما الوقت؟! أنا في استراحة الشركة في فرعها بإحدى المدن الجديدة، والتي اسمها كالمعتاد له علاقة ما بحرب أكتوبر..

فتحات الشيش أوضحت أن الظلام قد حلّ.. وصوت ما من ميكروفون المسجد وضعني في حيرة، هل هو إدبار العشاء أم إقبال الفجر؟ أين ذلك التليفون اللعين؟! كنت أنتوي إكمال بحثي بين ثنايا البطانية ولكن مثانتي طالبتني بالقيام.. ولم أكن لأرفض طلبًا للغالية.. هكذا ثنيت مؤخرة حذائي أسفل قدمي متوجهًا للحمام..

أسندت رأسي على راحة يدي بينما تركت مثانتي تقوم بعملها، وأخذت أراقب نقشة البلاط الشبيه بوجه رجل غاضب.. وهنا شعرت بحركة أشبه بالفوران في الماء الراكد المراقب لمؤخرتي.. الصوت ازداد فجأة ليُجبرني على التنبّه والقيام بدون تفكير.. ضغطت زر السيفون ولمحت بطرف عيني الماء ينهمر على شيء ما..

أنفاسي المتلاحقة جعلتني ألاحقها لخارج الحمام وأنا أرفع بنطالي.. أنير الغرفة فتومض اللمبة وتُطفأ للأبد.. شكرًا لكِ أيتها اللمبة. لم أكن أعرف كيف للأمر أن يسوء بدونك.. أعتذر لكِ أيتها اللمبة. فيبدو أني نسيت الهاتف، فلو فعلها وانتهت البطارية وهو تائه سيحصل على كأس العالم في إساءة الأمور..

على ضوء الحمام المفتوح أكملت تحرشي بالبطانية حتى وجدت اللعين يختبئ بين فخذيها.. الساعة تدل على أننا بعد العشاء، وهناك عدد من المكالمات تطمئن هل انقلب بي القطار أم وصلت بالسلامة.. أثناء بحثي كانت خلايا مخي تتساءل ماذا حدث، وهناك خلايا أخرى تُحاول إقناعها بأنه ربما فأر أو ضفدع تسلل عبر المواسير واتخذ من مواسير الحمام سكنًا طيبًا لا يصيبه التسونامي.. كانت الخلايا الأخيرة قد أقنعت الأولى تمامًا وتعاونّا على شدّ البطانية على جسدي.. حدثتني نفسي أن أقوم لأصلي لأطرد هواجسي، ولكنها صمتت عندما علمت أنني لابد أن أستحم بعد رفعة البنطال إياها، وأنني سأضطر لإغماض عينيّ أثناء غسل شعري وأترك للأشباح والقتلة فرصة الرقص حولي.. وتثاءبت توكيدًا على صمتها، وانكمشت انكماشة الاستسلام للنوم..

***

قدماي توشك على الموت والتحلل أسفل البطانية، فتتنزه خارجها طالبة لنَفَس بارد سريع ثم تعود لأحضان الدفء.. يبدو أنها نست طريق العودة فبقيت خارجًا لفترة.. عاصفة صغيرة من الهواء البارد

تُداعب أطراف قدمي.. ليس هذا وقت المداعبة، فأنا نائم الآن.. عاصفة أكثر غلظة تود المداعبة، فدلفت قدمي بسرعة أسفل الغطاء فأيقظلتني.. وفتحت عينيّ وأنا أنظر للباب المقابل.. لأجد ذلك الشبح يقف أمام الباب والضوء من خلفه، فأضحت معالمه كتلة من السواد.. ازداد اتساع عيني وأنا أنقبض راجعًا في السرير لأتبين ملامحه أكثر، فاختفى تمامًا.. كأنه خيال ترابي تذره الرياح..

نعم.. إنها ليلة طويلة من تلك الليالي.. التي يتآمر عليك فيها العالم لمنعك من النوم.. وستبدأ سيمفونية الرعب التي لابد أنك سمعتها يومًا في حياتك، والتي تتحوّل فيها أذنك إلى ملقاط للأصوات لا يترك نغمًا من نغمات نقاط المياه المتساقطة أو أنّات الأثاث أو حديث صراصير المنور مع فئرانه.. ويتحوّل كل شيء معلق على الحائط لشبح أو قاتل على حسب خيالك..

بحركات لزجة من فعل عَرَق الموقف.. قمت لأنير الغرفة متجاهلاً خاطر أن يأتي الشبح أو القاتل من أسفل السرير ليمسك قدمي.. لقد نسيت أن اللمبة محروقة.. تجمعت شجاعتي وتوجهت لخارج الغرفة لأجلب لمبة من غرفة أخرى..

وبدأت للمرة الأولى أدرك خريطة الشقة.. هناك غرفتان.. غرفة نومي وغرفة أخرى مجاورة لها عليها قفل، وهي المخزن بالطبع، وفي مقابلتهما الحمام.. رغم وجود القفل إلا أني ضغطت مزلاج الباب.. لم تُفتح بالطبع.. لمبة الحمام لا يمكن الاستغناء عنها، ولا المطبخ.. الصالة كبيرة

وبها لمبتان.. بكرسي مصاب بالكساح فككت إحداها.. وبنفس الكرسي بدأت تركيبها في غرفتي، وأثناء قيامي بقلوظتها سمعت صوتًا أشبه بإعادة تعمير مسدس.. -لا تقلق لن أضع النجوم الثلاث الآن-.. أوهمت نفسي بأنني واهم وأكملت تركيب اللمبة، وكأنها أملي الأخير في تبديد كل هذه الخيالات من غرفتي وتركها لتلهو بالصالة.. أُنيرت الغرفة والتي لم يبدُ بها أي شيء غريب.. ولكن صوت همسات من مكان ما بدأ يُحرّك أذني لتشمم مكانه.. الصوت يجيء من غرفة المخزن.. هناك شيئان يدعوان للذهول.. الأول أن القفل لم يعد موجودًا!! الثاني أنني حينما وضعت أذني على الباب لأتيقن من الهمسات انفتح الباب عن انفراجة قصيرة، رأيت من خلالها على ضوء خافت يأتي من الداخل ظلالاً تتحرك..

-الآن أستطيع أن أضع النجوم الثلاث بضمير مرتاح-

***

غرفة البواب مظلمة.. طرقات بدون رد..

في الشارع أسير رافعًا ياقة الجاكت المغلق حتى آخره، وتاركًا يدي تُمارس بياتها الشتوي في جيبيه..

أتفادى بركة المياه الصغيرة وأكمل سيري.. هل أتكلم عما حدث في الشقة منذ قليل أم أخبر الفضوليين بماضيّ؟! سأقتصد هنا وهناك..

أعمل كمهندس.. اسمي؟! لا يهم في أي شيء.. اعتبره كاسمك إن كان الأمر مهمًا هكذا.. أعمل بشركة (آتون) المتخصصة بصيانة الأجهزة الكهربائية بالفنادق بفرعها في أسوان.. أُرسلت لهنا حيث سأحصل على دورة تدريبية لمدة 3 أيام بترشيح من الشركة.. الشركة منحتني الأسبوع كله أجازة..

ويبدو أنني سأعيش أسوء أسبوع في حياتي.. الشقة مسكونة، صدّق من صدّق وكذّب من كذّب، ولكني أعلم ما رأيته.. وهو ليس في محل النقاش.. تأجير شقة فكرة رائعة لو وُجد من يدفع الإيجار..

يبدو أنني سأكمل سيري حتى يبدأ الصباح دورية عمله، وينتهي ساكنو الشقة من دورية عملهم.. طبق كشري بـ3 جنيهات من هذا المطعم.. سيكفل لي الطاقة حتى الصباح، فلست جائعًا..

- طبق بخمسة وحلو فرن وحاجة ساقعة.. كده الحساب عشّة جنيه..

ناولته الحساب.. ووضعت جنيهًا فضيًا في جيبه.. تقبله بكلمة شكر محفوظة.. الهواء البارد يود أن يقذفني حتى الاستراحة، لكن تذكّري لما هناك يُسمّرني أرضًا ويجعلني أفكر في خريطة سيري.. لن أبتعد بطبيعة الحال، فأنا لا أعرف الشوارع، وسأقوم بحفظ علامات تُذكّرني بخط سيري..

في منتصف الشارع كان يسير بشعره الأبيض الذي اسودّ بعضه قذارة، وبقميص وبنطال لم يغيرهما منذ زلزال 92 على الأقل.. يمسك في يده

كيس عصير قصب غامق.. يوجّه السباب يمنة ويسرة.. ظننت في البداية أنه يسبّني، ولكني أدركت أنه يسبّ شخصًا وهميًا..

- ما هو انت اللي ماسمعتش الكلام يا ابن الوسخة.. عنتين أمك..

يتوقف حتى يُنهي وصلة السباب.. ثم يُكمل سيره.. حتى اقترب من عمود إضاءة أسفله كارتونة جلس عليها، ويبدو أنها جلسته المعتادة.. أخذ رشفة من العصير.. ثم صاح:

- ما عشان انت ابن شرم...

دلفت إلى شارع جانبي مع نفير سيارة فصلت بيلنا.. بدأت أسير في الشارع وأنا أبحث عن علامتي الجديدة.. كانت تقف في البلكونة تُمسك شرابًا أصفر ساخنًا بيد خلت من الخواتم وبأصابع تقشر طلاؤها.. تنظر للقمر المنتقب ببعض السحب.. فيعكس وجهها البائس، تسرح في تفاصيله وتنسى الكوب في يدها..

أمر من أسفل البلكونة وأنحرف مع محيط البناية..

هناك ازدحام على الجانب الآخر من الشارع.. وهناك صرخات.. لم أحاول أن أتفحص كثيرًا، ولكن تخلصت جملة تُشبع الفضول..

- ده تاني واحد يغرق في البلاعة في شهر واحد.. ربنا يعافينا..

وأمامي كان كلب أعرج يتمسح بالجدار، وشعرت فجأة بحنين إلى أي مكان آخر غير هنا.. أخذت طريقي عائدًا إلى الاستراحة.. مرورًا بزحام الغريق، بفتاة القمر، بشاتم الحياة وشاتمته.. توقفت عند محل اشتريت شيئًا، وأكملت طريقي.. عند المدخل رأيت غرفة البواب وقد أُضيئت وهناك صوت بالداخل، ولكني أكملت صعودي.. من إحدى الشقق يصدر صوت صرخات طفل صغير متشابكة مع صوت غليظ:

- مش أنا قولت تنام يا عديم الرباية..

أصبح الصوت HQ عندما فُتح الباب.. والطفل يجري ومن خلفه -كما هو واضح- أبوه ممسكًا بحزام جلدي.. الطفل يتحامى بي.. والأب يحاول أن يدور من خلفي لينيل الطفل لسعة من حزامه..

- خد هنا ياله..

- خلاص يا حاج استهدي بالله..

- وانت مالك يا أستاذ!! أب بيربي ابنه..

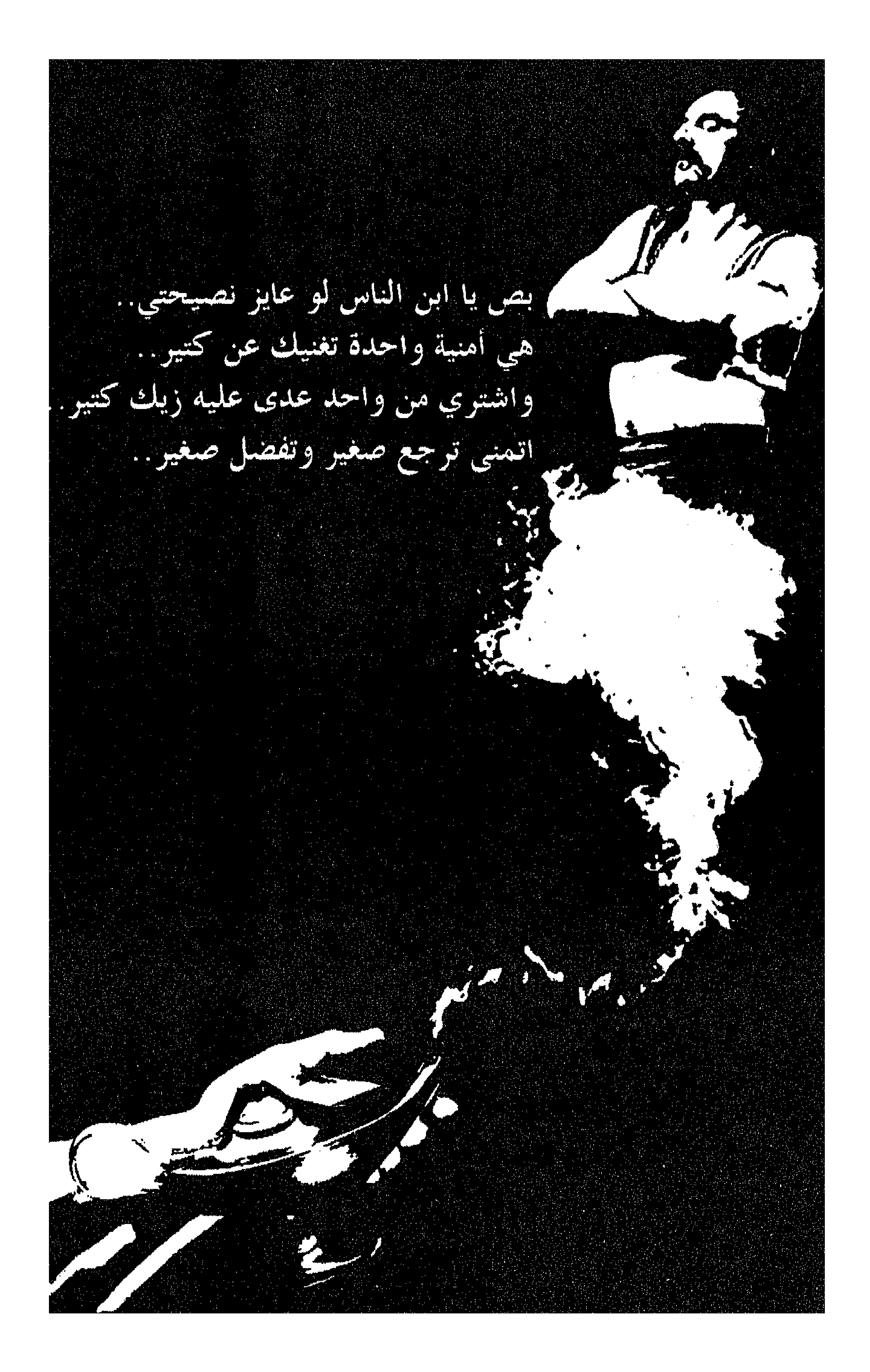
صعدت وتركت صرخات الطفل من خلفي تُعيد لي ذكريات لا أريد تذكّرها ولا أريد أن أحكيها.. أمام الباب سلّمت كيس المشتريات لليد اليسرى وفتحت الباب.. توجهت نحو غرفة المخزن، القفل منزوع والباب شبه موارب كما تركته.. اقتربت أكثر ودققت أكثر لأتبين الظلال.. طرقت عدة طرقات على الباب ثم دخلت..

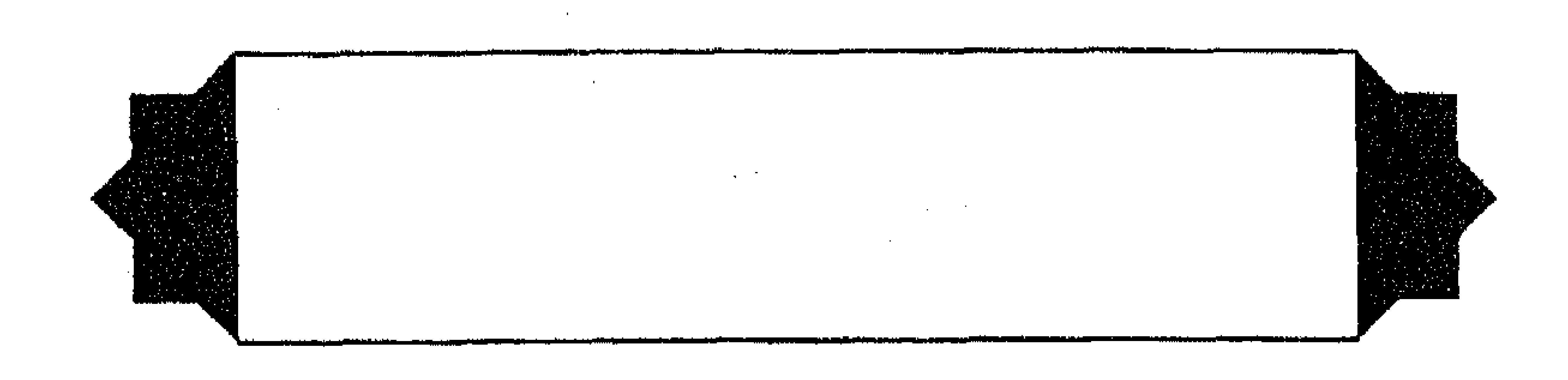
كان هناك حوالي ثلاثة منهم.. بهيئتهم الشفافة، وأحدهم دثّر نفسه بغطاء أبيض مثقوب لموضع عينين وهميتين.. يجلسون على الأريكة يشاهدون التلفاز، وكان هو مصدر الضوء الخفيف.. قلت بصوت مرتبك:

- ممكن أقعد معاكوا؟!

نظروا لبعضهم نظرات متسائلة.. ثم أشار من يبدو أنه كبير الجلسة برأسه أن نعم.. جلست وفتحت الكيس، وأخرجت زجاجة الكولا. ونثرت اللب الأسمر.. وأرجعت ظهري في الأريكة..

***


بص يا ابن الناس لو عايز نصيحتي..
هي أمنية واحدة تغنيك عن كتير..
واشتري من واحد عدى عليه زيك كتير..
اتمنى ترجع صغير وتفضل صغير..



يمسك شفرة الحلاقة ويقطع شرايينه وينتظر..

يُفرغ حبوب المنوّم ويبتلعها مرة واحدة وينتظر.. يُغلق المطبخ ويفتح أنبوبة الغاز وينتظر..

هذا ليس انتحارًا حقيقيًا.. الانتحار ليس به انتظار..

***

في ليلة موعودة يتناسى فيها الوالدان كل مشاكل الحياة وهمومها، ويبدأ المُدلِل منهما بتجهيز الأمر، ثم يولي الأمر للمسيطر ليفعل الأمور كما يشاء.. يتزايد جمال كل منهما في عين الآخر وتزيد التنهيدات الجمال سخونة.. حتى تنطلق التنهيدة الأخيرة وتترك لموجات البرودة إعادة الأمور إلى عادتها، ولا يتبقى إلا العرق..

هذا في الخارج، أما في الداخل.. فقد ابتدأ الماراثون المنوي.. كل رأس مع ذيل يوجّه حركتها تُحاول أن تُسابق الملايين.. ينطلق أحد الحيوانات محاولاً أخذ طريق مختصرة، فيندفع حيوان آخر بجانبه ليصطدم به ويتعطل كلاهما.. هناك آخر يعرف طريقه جيدًا وكأنه قد عبر هذا الطريق مئات المرات.. ينطلق، يتفادى المطبات.. ينطلق ثم يفرمل بقوة مع اتجاهه لأقصى اليمين، قبل أن يصطدم بالجدار.. ينطلق وينطلق.. ها قد وصل.. هناك عدد من الحيوانات كانت قد سبقته ووقفت تطرق باب البويضة.. أما حيواننا فإنه لم يطرق، وانطلق إلى أحضان البويضة التي فتحت له شبّاكًا صغيرًا ليدخل لها.. يعطيها نصف

الصفات التي يملكها فتضعها على النصف الذي تملكه.. ويبدأ تجهيز القادم ذي الصفات الكاملة..

في حوالي 9.25 شهر..

تقريبًا 40 أسبوعًا..

بمتوسط 280 يومًا..

هذه أكبر فترة من الراحة ستحصل عليها طوال الرحلة القادمة.. راحة مع ظلام دامس لن تذكر منه شيئًا.. تنتهي بيد لعينة تجذبك من النعيم، فتنطلق صراخاتك..

أحيانًا أتساءل: لماذا لم يضلّ الحيوان المنوي (الذي يحمل نصف صفاتي) طريقه في قناة فالوب؟!

***

عندما يمسك المسدس بيده اليسري ويشد أجزاءه بيمناه.. ثم يضع ماسورة المسدس الباردة بفمه، ويمتلئ فمه بطعم الحديد، ثم يغمض عينيه ويتمالك ما تبقى من أعصابه ليسيطر على ارتعاشة كفه.. ويضغط بإصبعه الذي أصابه الشلل حتى تنطلق الرصاصة.. ترى هل سيسمع صوتها؟!

الانتحار بمسدس يحتاج إلى شجاعة وإلى مسدس، وكلاهما غير موجود.. ولست من هواة تأجيل القرارت المصيرية..

***

ثم تجد الكل حولك ليبارك.. الكل يحبك في هذه الفترة.. والقادر على إضحاكك يظن أنه سيد العالم.. ستبكي إذا جُعت.. وستبكي إذا تبوّلت.. وستبكي إذا لم تجد شيئًا تفعله..

ثم ستكبر قليلاً وتتحرك وتتكلم، وكل حركة جديدة وكل كلمة جديدة سيهللون لها.. كما سيهللون لأي حيوان في السيرك يقوم بحركة جديدة.. ستبكي عندما تسقط على وجهك.. وستبكي إذا أردت شيئًا في السوق.. وستبكي لكي لا تذهب إلى المدرسة..

ثم يبدأ صبّ أساسك الفكري: من اللغة للمعتقد الديني للتعامل الاجتماعي.... هذا الأساس ستستمر بالبناء عليه لفترة طويلة.. رغم أنه كان قابلاً للتغير وفقًا لظروف تاريخية أو جغرافية، ولكنك الآن مُكلّف بالبناء..

الحب.. حبك الأول الذي لن يكتمل سيبدأ هنا، وسيُلحّ عليك في فترات تالية، وسيجعلك تبتسم كلما تذكّرت.

ستبكي عندما تنتقل إلى منزل جديد مبتعدًا عن أصدقائك.. وستبكي عندما تسقط عن دراجتك وتخدش ركبتك.. وستبكي عندما يضيع

منك شيء تحبه -هذا النوع الأخير من البكاء سيبقى معك- وستبكي لأنك صغير تريد أن تكبر..

ستبكي كثيرًا هذه الفترة..

***

قدمك الأولى على طرف البناية.. تجذب قدمك المتأخرة لتُجاور الأولى.. نسمات الهواء تتلاعب بأطراف ملابسك فتشعر بها كرياح عاصفة.. تنظر.. ترفع رأسك بسرعة وتبتلع ريقك، وصورة الأرض البعيدة ترتسم في ذهنك مرة أخرى.. تأخذ نفسًا طويلاً وتلفّ جسدك بحيث يصبح ظهرك مقابلاً للأرض البعيدة.. تُغمض عينيك.. تُحرّك رأسك للخلف ببطء.. تنام في الهواء.. أنت تسقط الآن.. بل إنك تطير..

إنه حلم الطيران القديم.. لا يوجد سوبر مان أو سبايدر مان في هذا العالم ليتلقفك في اللحظة الأخيرة.. أنت ستسقط، و.. وربما لن تموت.. ستدخل في غيبوبة وستفيق منها مشلولاً تمامًا.. لا تستطيع إلا أن تُحرّك عينيك، و.. ووقتها لن تملك القدرة حتى على الانتحار..

***

ثم لا تُصبح النجم الذي كان يلتفّ حوله الجميع ويتمنون إرضاءه.. تُصبح باهتًا مثلك مثل غيرك، حتى تفعل ما تُعيد به نجمك.. متى ستفعل ذلك؟! هذا يعتمد عليك أنت.. ربما لا تفعله أبدًا..

ثم تُدرك أنك تكبر بسرعة، والحياة اتخذت مرحلة أخرى في صعوبتها.. الدراسة أصعب.. الوصول لما تريده أصعب.. أن ترضيك ألعابك صار أصعب..

ثم تشتعل شهواتك، وخصوصًا شهوة التجربة.. ستتحكم شهواتك في أفعالك، وسيتحكم أصدقاؤك في شهواتك.. وسيخبرونك كيف تُفجّرها، وستُجرب معهم أشياء كثيرة.. ربما سيجارتك الأولى، وربما هروبك من المدرسة الأول، وربما فتاة المدرسة الجميلة التي ستُغازلها، وأول فيلم سكس تلتفّ أنت وأصدقاؤك حوله في مكان خفي.. ستفعل كل شيء دون تفكير، حتى تأتي علقة تُفيقك ربما ليوم، ربما لأسبوع، ربما لطوال الفترة القادمة..

ستبكي على نتيجتك الدراسية.. ثم ستهدأ وتنوي أن تُعوّض ذلك.. ثم ستندم يومًا ما..

نتيجتك في الثانوية.. ذاكرت أم لم تذاكر.. ستظن أنك أخطأت وستندم..
وسواء توجّهت إلى الكلية التي أردتها أم لا.. فلا شك أنك ستندم..

ثم أنت الآن قد انتهيت من بناء أعمدة تفكيرك.. والتي قمت ببنائها على أساسات صُبّت لك..

هذه الفترة ستندم كثيرًا.. ستندم لأنك ستظن أن المسار الآخر كان أفضل.. صدّقني لم يكن هناك أفضل من هذا لك..

***

إذا حاولت أن تكسر علامات التعجب لن تستطيع، ولكنك ستثنيها وستخلق دون أن تقصد العديد من علامات الاستفهام.. التي ستتكاثر وستلد جيلاً من علامات التعجب الجديدة كحقيقة آبائها..

أقول: ما قيمة هذه الحياة؟!

يتخذون مئات الطرق الخاطئة للإجابة حتى يتوقفوا أمام حائط سد.. فيقولوا: بعد الموت ستُجاب كل الأسئلة..

أقول: حسنًا.. وأنا أريد إجابة الآن..

***

ثم تدخل في مرحلة جديدة.. مرحلة (الأحلام التائهة).. فأحلامك وهي في طريقها لك تتوه مبتعدة، وتذهب لآخرين.. سيُحقق آخرون أحلامك، ستصرخ بهم: ابتعدوا، اتركوها، إنها أحلامي أنا.. لن يستمعوا إليك، ولن تستمع أنت لمن يصرخون بك ألا تُحقق أحلامهم.. سيُحقق آخرون أحلامك، وستُحقق أحلام آخرين.. ستعمل بوظيفة هي كل آمال شخص ما، أما أنت فلا تُطيقها.. ستبيع نفسك حين لا يوجد مشترٍ لك، وستكنز نفسك حين يكون بيعها هو سلم الوصول.. وستتزوج من تُريدها بشخص آخر، وستتزوج أنت بأخرى يريدها شخص آخر..

ثم بعد حوالي 9.25 شهر..

تقريبًا 40 أسبوعًا..

بمتوسط 280 يومًا..

من ليلة موعودة.. ستأتي بطفل آخر ليُعيد الرحلة لا ليُكملها.. رغم مرور نصف الرحلة فأنت لم تتعلم شيئًا، وتُصرّ أن يرى آخر نفس عذاباتك.. لست ملامًا هنا.. فالبشر سيستمرون في هذا الخطأ حتى النهاية..

ثم تتحول إلى ماكينة.. تستيقظ في وقت معين.. تذهب للعمل في وقت معين.. تعمل حتى وقت معين.. ستنصرف في وقت معين.. تأكل، تشرب، تنام.. تأخذ مرتبًا تضُخّه في البيت.. تُعيد الدورة الشهر القادم.. التحوّل إلى ماكينة سيُفقدك جزءًا لا بأس به من إنسانيتك..

ثم أنت تضع الآن السقف على عمدان تفكيرك.. السقف الذي تُريده أن يظلّ معك للنهاية.. وستُدافع عن هذا البناء الفكري، ولن تقبل بحدوث أي تغيير فيه خوفًا من أن يتهدم..

هذه الفترة ستُكرر ما تفعله كثيرًا.. ستملّ ثم ستعتاد ثم ستملّ ثم ستعتاد أن تملّ..

***

الصعب في عملية الشنق أمران: أن تتحمل الضغط على شرايين العنق حتى يقلّ وصول الدم إلى المخ وتنتقل إلى المنطقة الرمادية، وصنع عقدة المشنقة..

صنع عقدة المشنقة، بحث سريع على الإنترنت كفيل بالأمر..

YouTube How to Tie a Hangman's Noose Knot

تبقى الحبل، والتحمّل..

***

ثم أنت تزهد في النوم وفي أحلامك.. الأكل والشرب ليسا مسألة مضمونة، قد تزداد شراهتك وقد تزهد فيهما أيضًا.. كيس الأدوية ينمو يومًا عن يوم.. بعد فترة ستتناسى دواءً ثم آخر.. لن تشعر بفرق في البداية، ثم سيزداد التعب فجأة ليتضخم بعدها كيس الادوية تضخمًا مرضيًا...

ثم تكتشف أن ربما الحلم الوحيد الذي تمّ كما ينبغي بكل مثالية.. هو حلمك بأن تكبر.. وهو الحلم الوحيد الذي تندم عليه.. تتمنى أن تعود مرة أخري صغيرًا.. ولكن لا يوجد دوران في هذا الطريق..

ثم تكتشف أن الوقت يمر فعلاً.. أحد أولادك لم يزرك منذ سنة.. كيف مرت هذه السنة؟! لماذا أصبح شهر رمضان يأتي كل شهرين؟! ولماذا فترة الصباح لم تعد تكفي لقراءة الجريدة؟!

هل حقًا تاريخ السنة في هذه النتيجة صحيح؟! هل حقًا مرت السنوات -منذ آخر تاريخ تذكره- هكذا؟!

ثم تبدأ في اختيار رفيقك الجديد.. هل هو العكاز أم الكرسي أم السرير؟ رفيق النهاية..

ثم تصمت...

تصمت حين تُريد الدواء.. حين تُريد الأكل.. حين تُريد التبوّل.. تصمت حين يسألك أحفادك: "انت عارفني يا جدو؟!".. وجارك ثقيل الدم الذي لا تُطيقه، حين يأتي لزيارتك وهو يُحوقل كل دقيقة يكلمك ثم يُحوقل، تود أن تبصق في وجهه صارخًا، ولكنك تصمت.. حتى إذا كان كوب المياه متسخًا، حتى إذا كان الطعام سيئًا؛ فأنت تصمت.. من يستطيع أن ينتشل منك كلمة سيظن أنه سيد العالم..

ثم تتحدث إلى نفسك لحظات قليلة تُراضيها .. حتى لو لم تُحقق أحلامك، فما حققته لا بأس به.. بناؤك الفكري لا بأس به، ولقد أورثته ابنك، سيُكمل ليصبح أفضل.. ربما لم أتزوج بأفضل امرأة ولكنها كانت جيدة.. تتراضى وتعود للصمت..

ستصمت كثيرًا هذه الفترة..

***

عدد المنتحرين تقريبًا ربع من حاولوا الانتحار..

أُمسك العقدة التي ربطتها كما أوضح الفيديو.. أعقد طرفها بالحلقة الحديدية التي في السقف، والتي كانت معدة لتثبيت مروحة أو نجفة، ولكنها ستقوم بوظيفة أخرى هنا.. أشد الحلقة لأتأكد أنها ستتحمل ولن تسقط بي أرضًا.. ثابتة..

20% من المنتحرين يتركون رسائل تدل على انتحارهم..

أضع في جيب قميصي العلوي مفكرتي الصغيرة التي كتبت على غلافها بقلم سميك (متلازمة ثم)، والتي تحتوي على خواطري حول تلك الحياة العبثية.. أعتقد أنها دليل لا بأس به..

الغالبية العظمى من المنتحرين يكون قد سبق لهم محاولة الانتحار من قبل..

لن أحاول مرة أخرى.. سأعاهد نفسي على هذا.. العقدة خلف العنق.. الكرسي الذي أقف عليه هو الشيء المرتفع الوحيد حولي.. الشريطة القماشية أُحيط بها عينيّ.. لا داعٍ أن أرى شيئًا وأنا مُعلق يجعلني أتعلق ولو ثانية واحدة بهذه الحياة.. يدي في جيوب البنطال الأمامية ستبقى هناك ولن تتحرك لأي سبب كان..

***

ثم لحظات ما قبل النهاية -ربما كانت نهايتك قبل هذا بكثير ولن تصل لهذه المرحلة-

أنت لم تعد تتحصل على عقلك إلا قليلاً، ولكنه حتمًا قبل النهاية سيعطيك لمحات من حياتك.. من بكائك، من ندمك، من تكرارك، من صمتك..

ثم أنت ترحل معنويًا.. وربما يصاحب هذا صرخة.. أو تنهيدة ارتياح.. أو لا شيء، وتبقى عدة أيام حتى يُبلغ جيرانك عن الرائحة اللعينة التي تفوح من شقتك.. أيًا كان.. النهاية واحدة، أنت في الأرض الآن.. قد يحزن البعض قليلاً، ولكنهم حتمًا سينسون.. ويذهبون ليكملوا دوائرهم اللعينة، حتى ينتهي بهم اليوم ليجاوروك..

ثم..
ثمين أم الحياة التي لا تُريدنا سوى بهائم في ساقيتها..

ثمين أم كل من قَبِل أن يسير في مسارها الوهمي ظانًا أنه يسير للأمام، ولم يُدرك بعد أنه يدور..

ث.. م..

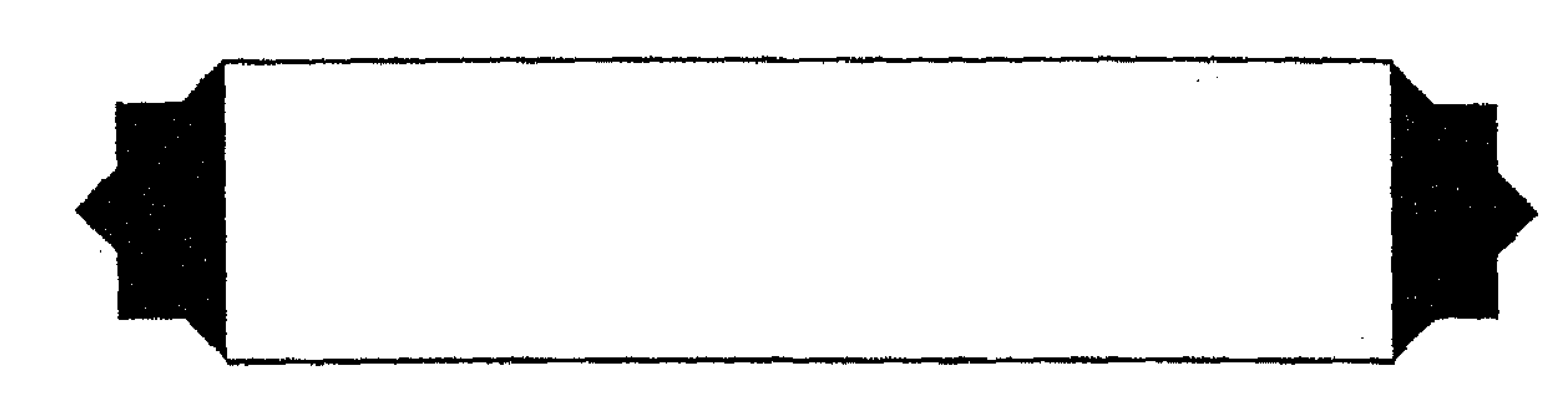
***

أركل الكرسي..
أحمر.. يزداد اغمقاقًا.. أسود.. رمادي.. أ بـ يـ ض..

***

إلى أحلامي المؤجلة/
أتلهف إلى يوم لقائك..
عذرًا قد أتأخر قليلاً..

(المُخلِص إلى حد ما)




٨

أنا الأفضل..

لا، أنا..

لا، أنا..

تعارك ثلاثتهم وتجاذبوا على الأفضلية..

الأرض: أنا أكبركم سنًا..

السماء: أنا أكثركم إعجازًا..

البحار: لولاي ماكانت الحياة..

أنا أقدمكم..

أنا محييكم..

أنا أعظمكم..

على سطحي يعيش الكائن الأكرم.. ومدت يدها فإذا بزروع وحيوانات وبشر..
من خلالي تنتقل أجمل الكائنات.. ومدت يدها بحفنة من الطيور تُرفرف هنا وهنالك..

في أحضاني تسبح أعجب الكائنات.. ومدت ذراعها فتقافزت أسماك من كل لون..

كفانا شجارًا..

فلنحتكم لأحد..

ولِمَ لا نحتكم للعظيم الأعظم؟

قالها من قالها ليترك الآخرين صامتين..

أنّ الصمتُ من صمتهم..

وعلى باب المنطقة المقدسة.. ظلوا واقفين مترددين..

وطار قناع العظمة أمام الباب..

ودخلوا حفاة الأقدام منكسي الرؤوس.. ومن وراء ستار سألوا..

يا أيها العظيم.. يا من بدأت الزمن..

يا من نمنّ إليك بالوجود..

أي ثلاثتنا أكثر أفضلية..

فالعلم كله عندك.. ونحن مجرد جهلاء..

لا جواب..

تنفست الأرض فتحركت جبالها..

ألستُ أنا من جعلتها قبلة للحياة؟

ومن طيني خُلق البشر.. وزينتَني بالشجر..

حاشا أن أُخبرك، فالعلم كله عندك..

لا جواب..

دمدمت السماء فتحرك سحابها..

ألستُ أنا من جعلتها بدون عمد؟

ومنحتني أمانة الهواء.. وزينتَني بالشمس والقمر..

حاشا أن أُخبرك، فالعلم كله عندك..

لا جواب.

هدرت البحار.. فتحركت أمواجها..

أليست كل الحياة مني؟

وجعلتَني طاهرة مُطهرة.. وزينتَني بالأعماق والجُزر..

حاشا أن أُخبرك، فالعلم كله عندك..

لم يُسمع الرد سماعًا، ولكن اخترق وجدانهم..

لا تفضيل بينكم..

فأنتم يُختبر بكم ساكينكم.. وتُختبرون بساكينكم..

والاختبار سيُخبركم..

انثنوا كثيرًا وهم يُولّون الأدبار لأماكنهم..

وما إن خرجوا من الباب..تلامزوا وتلاكزوا..

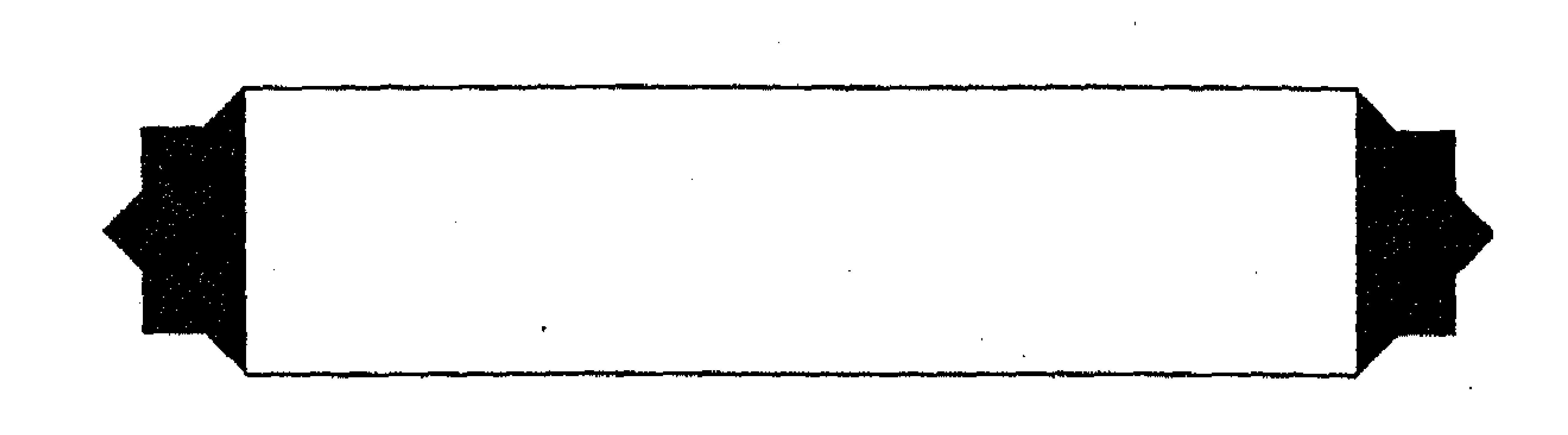
لكزة السماء مع الأرض.. خلقت زلازلاً..

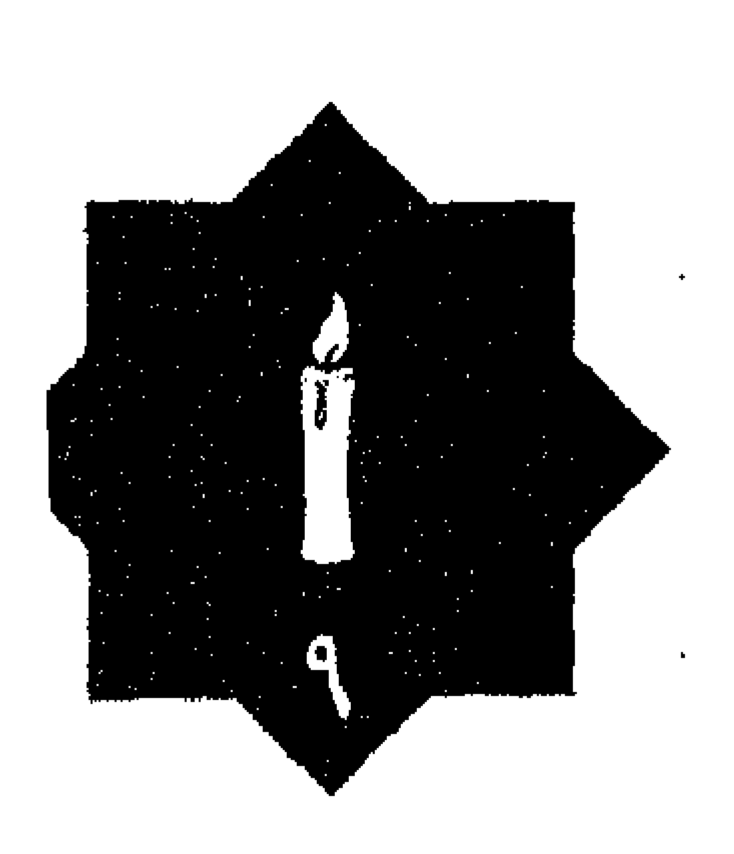
والسماء مع البحر.. خلقت أعاصير..

والبحر مع الأرض.. خلقت سيولاً..

وظلّوا هكذا إلى يوم ما..

***




٩

كانت قرية (العبادلة) قد بدأت في سكونها الليلي المعتاد، ولم يكن يقطع هذا السكون إلا نعيق الصفادع وصرصرة صراصير الحقل وأزيز لمبة صفراء على عمود الكهرباء و...

- ولاااا.. ولاااا.. إلحق يا لاا..

وطفل صغير كان يجري في أنحاء القرية يزرع أغنيتها بصوته..

- ولاااا.. ولاااا.. إلحق يا لاا..

وكان (عبد السميع) يجلس هو وأسرته يشاهدون أحد أفلام (عبد المنعم إبراهيم) الذي يقتلع ضحكاتهم، بينما التفّوا حول الشالية ينتظرون غليان كنكة الشاي الموضوعة عليها.. أما عبد السميع فكان مشغولاً برصّ أحجار المعسل حتى تشتعل (قوالح) الذرة التي وضعها في جانب الشالية.. حين تناهى لمسامعه ذلك الصياح:

- ولاااا.. ولاااا.. إلحق يا لاا..

لم يكن أحد من أسرته قد وصل لأذنه هذا النداء، ولكنه (عبد السميع).. فتح (عبد السميع) الشبّاك نصف فتحة منتظرًا مرور الطفل (عبد البصير) والذي ميّز صوته بسهولة..

عبد البصير: ولاااا.. ولاااا.. إلحـ..

عبد السميع: فيه إيه يا فرقع لوز انت ع المسا؟!

عبد البصير: إلحق يا عم عبسميع، أنا وأبويا لقينا قتيل قدام البيت المهجور وشكله كده.. أعوذ بالله..

وقبل أن يسأل (عبد السميع) سؤالاً آخر كان (عبد البصير) قد عاد لهرولته وصياحه..

عبد البصير: ولاااا.. ولاااا.. إلحق يا لاا..

***

ضبط عبد السميع قبعته الصوفية الطويلة على رأسه و تلفح بعباءته التي أكل الزمن أطرافها، وحينما وصل أمام البيت المهجور كان عددًا لا بأس به من رجال القرية هناك يلتفون حول تلك الجثة العجيبة.. كان البيت من طابقين، وقد تهدم عدد من جدرانه وأعمدته، ولكن بقيت عدة عواميد رومانية الطراز تشهد أنه كان هنا بيت رائع في أحد الأيام.. وكان (عبد القوي) غفير القرية يحكي:

وأنا ماشي باخد لفة الليل ومعايا الواد (عبد البصير) ابني.. لقيته بيصرخ وبيقولي ده فيه عفريت عند البيت المهجور.. وبيحلف إنه شاف عيون قايدة زي النار!! البيت كان بعيد وآني ماشوفتش حاجة.. جريت ناحية البيت وببص لقيت الجثة أم راس مسخوطة دي.. وروحت بعت تليفون للمركز، والواد طلع يناديكوا، أما نشوف إيه السواد اللي داخل علينا دي..

كانت رأس الجثة متقلصة.. يلتصق الجلد بالعظم بشدة، والفم مفتوح إلى أقصاه، والعينان ضامرتان.. وفي أعلى جانبي الرأس كان هناك ثقبان جفت على حوافهما الدماء..

وحين حضر الضابط (عبد الرقيب) كانت السماء قد بدأت تهطل أمطارًا خفيفة، وبدأ الرعد يسري في أنحائها استعدادًا لحفلة صاخبة الليلة.. اقترب الضابط من الجثة، وفتح أهل القرية من بين أجسادهم طريقًا ليمر، واقترب منه شيخ الخفر (عبد المهيمن).. ضرب شيخ الخفر الأرض بقدمه اليمني وارتفعت يده بتحية مبالغة..

عبد المهيمن: معالي الباشا..

عبد الرقيب: (بعد نظرة ممتعضة على طول الجثة) مين ده؟!

عبد المهيمن: ده فلاح من نواحينا يا باشا.. اسمه (عبد الأول)..

الرعد يطرق صفائح السماء..

***

سيطر الرعد والبرق والمطر وموجات الهواء الباردة على كل أنحاء القرية، وفي داخل منزل (عبد الكريم) أكمل الرجال اجتماعهم، وكل منهم يتدفأ بكوب من الشاي أو الآيسون أو الحلبة الحصى، أو بالكلام عما حدث ووضع افتراضات..

وخارج دوار العمدة جلس (عبد القوي) مع زملائه (عبد الجبار)، (عبد القادر)، (عبد المتين)؛ يُعدّون بنادقهم (المورِس) الصدئة ويُتممون على ذخائرهم..

عبد القادر: كل واحد يجيب كام خرطوشة.. بدل الكام عيار اللي ضربتهم في دخلة (عبد اللطيف) دِكِ النهار..

ولم يكن ليقدر أحد على رفض طلبات (عبد القادر).. أما داخل الدوار فقد جلس العمدة (عبد الملك) والضابط بجوار المدفأة يشربان السحلب، بينما وقف شيخ الخفر واقفًا يُحرك جانب فمه ليطرد ناموسة وقفت عليه..

عبد الملك: (يمضغ المكسرات) إحنا عايزين..ممم.. نلم الموضوع ده بسرعة..

عبد الرقيب: إحنا بنقوم بشغلنا يا عمدة.. وإن شاء الله هنقبض ع الجاني في أقرب وقت..

عبد الملك: ربنا معاكوا.. ولو الموضوع خلص قوام قبل ما (عبد الخبير) ياخد خبر.. ممم.. هيكون فيه هدية مني لكل رجالة المركز.. ممم.. ما انت عارف (عبد الخبير) مابيتبلش في بوقه فولة، وهيعرف كل البلاد اللي حوالينا، وساعتها مصالح كل أهل البلد هتوقف..

عبد الرقيب: بإذن المعبود الموضوع ده هيخلص النهارده..

***

اختلاط المطر بالتربة بعث رائحة طينية ملأت أنوف الجمع الذي وقف أمام البيت المهجور.. أما تقرير الدكتور (عبد الحكيم) فقد أكد بأن مخ الضحية تم شفطه بطريقة ما من الجمجمة، وأن الآثار المختلفة على الضحية تُرجّح أن الجاني ربما يكون حيوانًا ضاريًا.. ولذا كان هذا الجمع لا يحمل إلا نية واحدة، وهي اقتحام هذا البيت..

كان الضابط -وبجواره شيخ الخفر- يشرح للخفراء خطة الاقتحام.. حين رنّ الهاتف الأسود ذو البكرة الموضوع على مكتب المأمور في المركز..

عبد المقدم : ألو... (صمت لمدة دقيقة)

يضع سماعة الهاتف ويُمسك جهاز اللاسلكي.. يضبط مؤشراته..

عبد المقدم: 803.. 803 (صفارة).. 803 حدد مكانك.. (صفارة).. القوة تتراجع وماتتعاملش (صفارة).. نفّذ الأمر وارجع للمركز فورًا.. (صفارة)

اختفي (عباد المأمور) من المشهد في لحظة وتركوا الجمع بدون قيادة تحكم رأيهم.. لحظات وظهر سؤال من سيتولى أمر القيادة.. (عبد الولي) يتولى أمر شراء الماكينات الزراعية من المدينة وسيغيب حتى نهاية الأسبوع.. (عبد الكبير) أصابه العجز ولم يعد كالماضي.. الشيخ (عبد النبي) والقس (عبد المسيح) اعتزلا الأمر خوفًا من أن يؤدي إلى فتنة..

عبد العليم: اسمعوا كلامي.. أنا من زمان وأنا بقولكوا نهد البيت ده ونعمل بداله مدرسة أو مستوصف يفيد البلد.. اسمعوا كلامي وبلاش تدخلوا..

عبد المتعال: والنبي اتلهي على عينك يا خويا.. طالما انت ناصح قوي كده ماهدتوش انت ليه؟! ولا هي لماضة وخلاص! احنا هندخل وهنحل الموضوع ده بمعرفتنا..

عبد الهادي: استهدوا بالله يا جماعة.. احنا في إيه ولا في إيه؟!!

وتكلم حانوتي القرية وأمّن على كلامه الدفّان..

عبد المميت: أنا شايف إن احنا نتوكل على الله وندع الخلق للخالق..

عبد القابض: عين العقل والله.. يالا بينا احنا نتوكل على الله يا حاج عبد المميت علشان نستعد لدفنة بكرة..

عبد الصبور: طيب يا رجالة ما نصبر للصبح؟ والنهار له عيون برضك..

عبد الغفار: (رافعًا يديه للسماء) غفرانك ربنا إنا كنا ظالمين.. سامحنا يارب واعفو عنا..

عبد المؤمن: اللهم آمين.. المهم يا جدعان ماقولتاش برضه هنعمل إيه؟!

عبد المجيب: أنا شايف إن الموضوع ده مايحلهوش إلا عم عبده..

عم عبده.. مجذوب القرية أو مشعوذها أو بركتها أو أ... هذه أمور مختلف فيها.. عم عبده أو الشيخ عبده أو الحاج عبده أو أ... هذه أمور مختلف فيها.. ينام في الغيطان، في بيوت الله، لا ينام.. يظل الاختلاف قائمًا..

عبد العليم: يعني آخرتها الراجل بتاع الجن والعفاريت هو اللي هيمشي رجالة بشنبات قدامه؟!

عبد الحليم: حلمك يا عبد العليم شوية.. ما الواد عبد البصير بيقولك شاف عيون قايدة نار.. ده أكيد أعوذ بالله شيطان أو جن..

عبد العليم: ما بلاش كلام فارغ..

عبد الستار: يا ساتر عليك يا شيخ، دي حاجة مذكورة في القرآن ولا انت هتكفر؟!

عبد العليم: ما هو القرآن ده اللي بيقول إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم.. يعني محدش بيشوفهم يا ناصح..

عبد السلام: طب سلامو عليكم أنا.. علشان مش ناقصة قلة مزاج..

عبد الجامع: استني يا عبسلام.. يا جدعان يد الله مع الجماعة، مش كده!

عبد العليم: خليكوا انتوا بقى مع بعضكو علشان مبوظش روح الجماعة.. وخليك شاهد يا عبد الشهيد إني قولتلكوا بلاش تدخلوا البيت وبلاش اللي اسمه عبده ده..

عبد الشهيد يهز رأسه..

عبد المتعال: في ستين سلامة يا خويا.. المهم يا رجالة عايزين نوصل للشيخ عبده..

أين تجد عبده؟! أ... لا تقلق سيجدك هو..

***

كان يُقبل بخطوات عرجاء لا تضبطها إلا عصاه.. وحين ظهر في محيط الأحداث توقف الكلام.. فألسنتهم لم تجفّ من سيرته، فإذا به شحمًا ولحمًا هنا..كان هذا معتادًا في الفترة القليلة التي ظهر فيها عبده في القرية، ولكن اليوم ليس عاديًا..

أقبل البعض يُقبّلون يده وكتفه، والباقون أظهروا الاحترام، فالرجل يسبقه صيته ومعجزاته.. كاد أحدهم أن يتكلم فأشار له عبده بالصمت.. ثم أشار برأسه تجاه الباب.. ففتح (عبد الفتاح) الباب.. ثم أخرج عبده من حقيبته القماشية البالية عددًا من الكتب مزّق صفحاتها على الباب ووطئها بأقدام تتراقص في كل اتجاه..

عبد الحميد: (في سرّه) الحمد لله إن عبد العليم مشي وإلا كان زمانه هيعملنا غاغة دلوك..

ثم غرز عبده قلمي رصاص بجوار طرفي الباب وأشعل فيهما النيران.. ثم تقدم، ومن خلفه الجمع.. فأشار بيده أن ثلاثة.. ثلاثة فقط يتبقون.. وما إن قدّم الجمع الثلاثة أشار عبده للبقية أن ارحلوا.. عدة مرات حتى رحلوا.. ودخل..

أنّات الخشب أسفل أقدامهم صنعت موسيقى تصويرية تليق بالموقف.. خطوات وخطوات.. والموسيقى التصويرية تتعالى وتتعالى.. وفجأة.. انغلق الباب من خلفهم وقُفلت الشبابيك وساد ظلام تام..

الكل يبحث بعينيه عن أي شيء.. أي.. إنها العيون الحمراء.. عيون الشيطان التي رآها (عبد البصير).. واحد من الأربعة كان لا يراها لأنه صاحبها..

***

القرية تتنفس الرعب هذه الأيام، ولم يجد الهدوء ملجأ إلا في صدر (عبد الحي) وترانزيتًا في صدر (عبد الآخر).. أما (عبد العليم) فالقلق وأخواته يتغذون على ما تبقى من صدره.. هو يعلم أن دوره التالي لا محالة -ولأن لا أحد يعيره اهتمامًا- فقد جلس ينتظر دوره مستسلمًا..

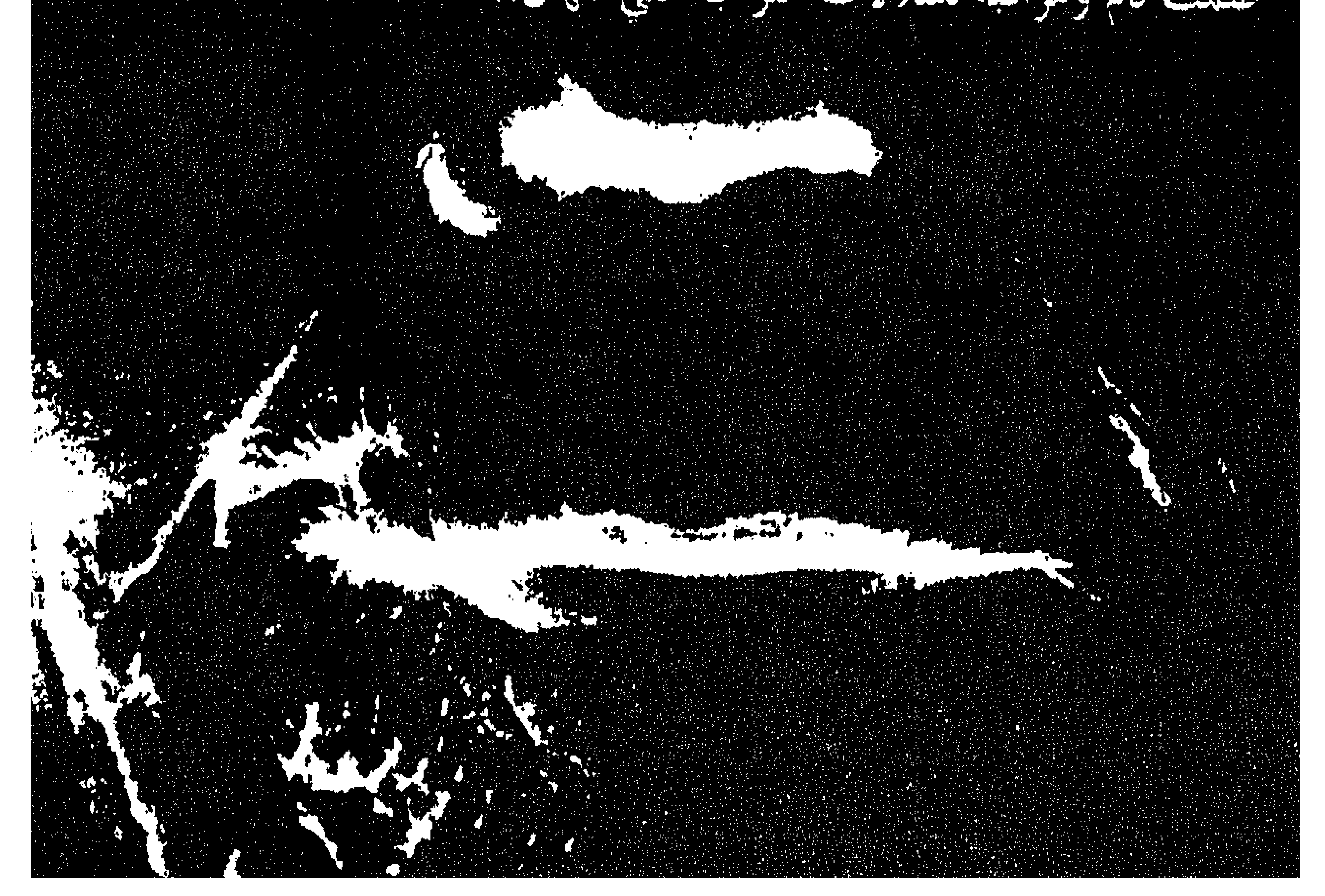
***

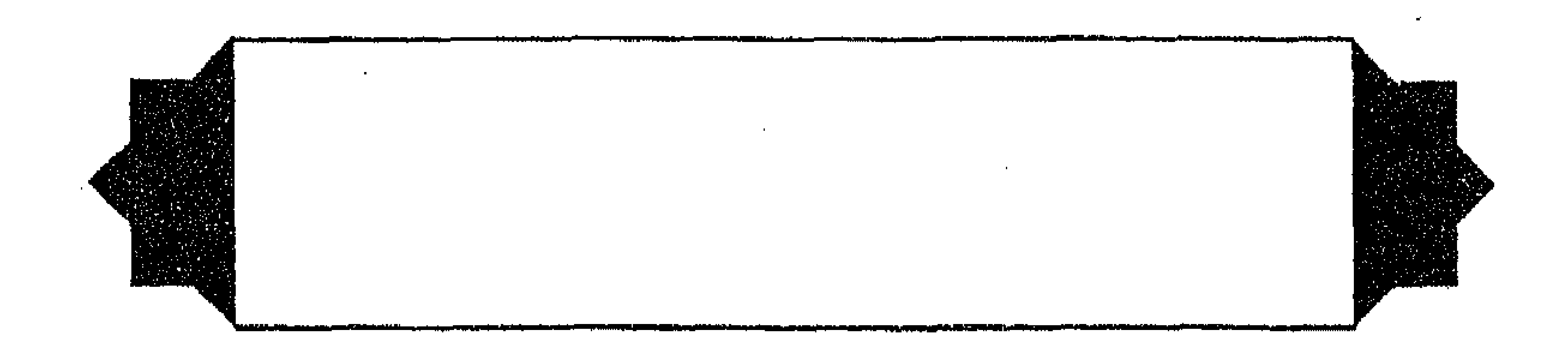
كانت عجوز القرية تقف في المقابر قريبة من الدفنة التي تتم الآن، والتي تبعت جنازتها للعظة وثواب الاتباع.. اقتربت مجذوبة القرية من عجوزها ومالت عليها تسألها بتعجب:

- هو احنا هنتدفن هنا يا خالة وفيقة؟!
- أيوة..
- مش ده طين؟!
- أيوة..
- واحنا مش مخلوقين من طين؟!
- أيوة..
- طب ليه ربنا خلقنا من الطين علشان يطلع ميتينا واحنا كده كده راجعين تاني للطين؟

....

صمت تام ومراقبة لشلالات التراب التي تنهال..





وقف "عماد" جوار سور المترو الموجود بين محطتين يكمل سيجارته " السوبر " التي تأخذ وقتًا أكثر من اللازم.. نفث دخانها.. ثم أخذ النفس الحارق في آخر السيجارة وشعر بطرف السيجارة يزداد ليونة وسخونة معلنة انتهائها.. فألقاها بطرف سبابته لتستقر جوار عدد من الحصوات تُكمل رحلة انتهائها الأبدي.. وأخذ نفسًا قصيرًا من الهواء بفمه ليُجبر الدخان على التنزه في صدره.. ثم سمح له بالإفلات وهو يصعد فوق المصطبة الحجرية التي تُثَبّت بها السور الحديدي المزخرف، الذي يحول بينه وبين شريط المترو..

وبدأت الصورة تعود لذهنه كفلاش قوي مُلوّن بدرجات الأصفر القديمة..

***

الكثير من أصوات الأطفال الصاخبة هنا وهناك.. والكثير من المريلات الممزقة المرقعة، والمخاط الذي يسيل من الأنوف، والشعور المجعدة المتربة مثل الوجوه، وساندوتشات الجبنة الحادقة.. وكل شيء يدل على أن هذه مدرسة حكومية..

ألقى الطفل الذي يملك عيونًا بريئة ووجهًا شيطانيًا كباقي أقرانه الكرة من داخل السور لتذهب إلى أقرانه في الخارج، ثم التفت إلى عماد:

- يالا شبكلي..

- طب وأنا هطلع إزاي؟!

- يا عم انت خفيف وهتعرف تتصرف..

هكذا صنع عماد بيديه المتعانقتين ما يشبه سلّمة، وضع الطفل الآخر قدمه عليها بدون مبالاة، وأمسك طرف السور.. ثم شدّ جسده حتى وصل صدره لأعلى السور، وجذب نفسه للخارج..

نظر (عماد) للسور.. ثم رجع للخلف وتقدم بسرعة وهو يرفع يديه.. لكن السور بعيد حقًا.. أحضر حجرين وضعهما فوق بعض، لكنهما لم يكونا كافيين.. أحضر برميلاً من الصاج الصدئ موضوعًا فى الجوار، استُخدم في أعمال بناء كانت هنا في يوم من الأيام.. وضعه بجوار السور بعد أن أنهك تمامًا، وبواسطة الحجرين صعد عليه.. مد يديه حتى تشبث بالسور وجذب جسمه بكل قوة.. لكنه لم يستطع إلا أن يمد رأسه.. بحث عن صديقيه بعينيه..لم يكونا هناك.. ومن بعيد رآهما يسيران وهما يمرران الكرة لبعضهما ويملآن الدنيا ضحكًا بدونه..

أسند قدمه على البرميل ثانية.. لكنه لم يكن كما توقع، وشعر بالأرض تتموج من تحته.. ليسقط ويرتطم وجهه بالجدار ويكسب عددًا من السجحات و التورمات.. وتساقطت قطرات من دمه لتتخلل رمال الفناء..

***

قفز عماد من فوق السور.. ثم رتب هندامه المتواضع نوعًا.. هو يعلم أنه لن يحتاج لذلك، لكن هذه من العادات التي لن يستغني عنها..

عبر الشريط الأول الذى يدلف إلى النفق.. و توجه إلى الشريط الثاني القادم من النفق.. نظر إلى القضبان..

ولمع الفلاش..

***

الكثير من الأصوات الصاخبة لهدير الماكينات تسبح فى الأرجاء.. يقطعها كل فترة صوت المقص الكهربائي "فررررروم.. كليك.. كلاك ".. والإضاءة المهتزة القادمة من كشافات دائرية متدلية من السطح، والكثير من الوجوه العابسة التي لون أسفل أنوفها بزغب نهاية الإعدادية، و يرتدون جميعًا العفريتة الزرقاء.. وهناك مهندس ما أصلع وله شارب كثّ أبيض، يدخن عندما يتعصب – أي باستمرار- ويصيح كل ثانية ليقول إن هذه مدرسة تعليم صناعي..

هناك طالب يقطع قطعة من المعدن بواسطة الصاروخ الثابت ويضع على وجهه نظارة شمس.. ليتطاير الشرر الأصفر الذي يؤذي العيون..

أما عماد فكان يجلس فى جانب آخر و يُمسك بيده اليمنى بوري اللحام، وبيده اليسرى القناع الواقي.. ويشِط البوري فى الشغلة أمامه.. وهنا اقترب المهندس منه، نظر إلى موضع التوصيلات ثم صرخ فيه:

- انت يا طالب..

لم يسمعه عماد بفعل صوت الماكينات .. ولكنه لمح وقفته، فترك ما بيده وتوجّه نحوه:

- أيوة يا باشمهندس..

- إيه التوصيلة اللى انت عاملها دي؟!

-... أنا موصل الماسك بالموجب والأرضي بالسالب.. علشان سمك الشغلة صغير.

لم يستمع المهندس لهذه المحاضرة.. فقاطعه:

- أنا قلت كده؟! أنا قلت كده؟! مين اللى علمك الكلام الفارغ ده؟!!

- يا باشمهندس ده اللي موجود فى الكتاب..

- طب خلي الكتاب يديك أعمال سنة..

ثم تركه و أشعل سيجارة متناسيًا كل قواعد الأمن الصناعي، ومتوجهًا إلى طالب آخر ليري كيف يُمكن توبيخه..

أما عماد فقد فتح مقدمة العفريتة سامحًا لدخان العمل الذي يصدر منه بالخروج.. وتوجه إلى أريكة خشبية منخفضة اسودت بفعل الزمن وبها مسمار طرفه ظاهر.. ألقى بجسمه عليها، وعلم بوجود المسمار

عندما شعر بالألم اللحظى فى إبهامه.. أمسك إصبعه واعتصره بإصبعيه.. لتسقط قطرتان من الدماء على أرض الورشة.. تسربتا من شقٍ بين بلاطتين..

***

عبر إلى شريط المترو القادم من النفق.. ثم نظر إلى مدخل النفق المظلم.. وأخذه بنظرة من معانقته للأرض مرورًا بوسطه نصف الدائري حتى وصل للأرض مرة أخرى متأملاً تصميمه.. وضرب الفلاش رأسه مرة أخرى..

***

- يابا أنا ممكن بعد السنتين دول أدخل كلية الهندسة..

لم يرد والده وإنما اكتفى بهرش إبطه أسفل حرف الفانلة البيضاء، التي أصبحت سمنية بسبب عدم تغييرها من فترة.. ثم أمسك بنفس اليد عود الخس الأخضر ودسه فى فمه لينضم إلى الهريس الذي يلوكه.. ثم قال –دون أن ينظر له- من بين البصاق والطعام المتطاير فى كل صوب:

- أنا قلت اللي عندي.. لأ يعني لأ..

وضع عماد وجهه في الأرض، وشعر بذلك السكين الذي يقطع قلبه ليزيد الدماء فى جسده لترتفع إلى رأسه.. فتضغط على مخه وعلى

عينيه وعلى أسنانه.. ثم انصرف دالفًا إلى الغرفة التى ينام فيها هو وأخوان صغيران يلهوان فى الشارع.. أغلق الباب خلفه بقوة وجلس على السرير، دفن وجهه بين يديه لتمتلئا بالدموع الحارقة التي تأكل عينيه.. دخلت أمه عليه مسرعة، اقتربت منه، واحتضنته بيد ملوثة لتخنقه برائحة الثوم والبصل.. ثم قالت وهي تُربت على ظهره:

- أبوك مش معاه فلوس يا عماد.. هو عايزك تشتغل عشان تساعده.. وهو يا بني لو معاه هيمنع عنك؟ احنا لينا مين غيرك.. متنساش أختك على وش جواز.. والاتنين الصغيرين عاوزين دروس.. معلش يا بني، انت الكبير..

لم يسمع ما تقوله، واكتفى بغرس أظافره فى رأسه من أعلى.. وقال من بين أسنانه:

- سبيني يا امه لوحدي..

نظرت له بشفقة.. ثم توجهت لتلحق شيئًا ما على النار.. وهنا شعر عماد بأنه قد أصاب جوار عينه اليمنى بظفره، ليترك ندبة بسيطة ستبقى معه دائمًا.. مسح بسبابته وإبهامه ليتلطخا بالدم.. ثم مسح إصبعيه فى الجدار الجيري الذي امتص الدم بسهولة ليصنع خطًا بنيًا تحول مع السنين إلى الأسود..

***

انفض عماد عن تأمله للمدخل ونظر إلى داخل النفق.. كان مضاءً إضاءة خافتة بلمبات النيون الموضوعة على جوانبه، لكنها زادت النفق غموضًا.. أراد أن يخطو خطوة للأمام حين مر من خلفه على الشريط الثاني المترو المتوجه للنفق.. ليجعل ملابسه ترتفع محاولة اللحاق بالمترو، الذي أطلق بوقه العميق ليجعل الفلاش يومض مرة أخرى في رأس عماد..

***

- الأجرة اللي مادافعش ورا..

قالها عماد وهو يجلس على المسند خلف الكرسي الأمامي ويعد بعض النقود.. كان هذا هو العمل الإضافي جوار ورشة الميكانيكا التي يعمل بها.. وكان محصلتهما معًا يكفي لصنع أكثر من ثماني ورقات من فئة الـ 100 جنيه بقليل.. هذا المال لن يكفي أبدًا ليتزوج ابنة خاله.. لكنه سيسافر قريبًا.. هناك شخص ما سيُخبره أن الميعاد حان.. هو سينتظره مهما طالت المدة..

انتهى الطريق وأوقف السائق سيارته بجوار كوبري المشاة في موقف العاشر، حين صرخ بعض الركاب:

- إيه ياسطى؟ انت مش داخل السلام؟

- لا يا جدعان، الطريق آخره هنا..

- أومال التبّاع بتاعك بينادي السلام ليه؟

- لا.. ده الآخر بتاعي..

تعامل السائق مع الموقف وكأن التبّاع يهمه كأي سائق يحافظ على –برستيجه-.. لكن في نهاية اليوم.. يحدث بين عماد والسائق مشادة تُصاب فيها أنف عماد بلكمة.. وناوله أحدهم منديلاً وهو يقول:

- معلش يا دوّاسة..

لقد أصبح هذا لقبه.. كعادتهم مع كل من يفقد كرامته أو جزءًا منها.. وها هو ينضم إلى النادي الذي سبقه إليه "الكورك " و"خرشمة" وغيرهم..

ابتعد عماد عن الموقف وهو يضع المنديل الورقي أسفل أنفه؛ ليتشرب الدماء، ثم تركه تلهو به الرياح..

***

أخذ عددًا من الخطوات نحو النفق المظلم..

***

- وانت إيه اللى يعيبك يا ضنايا.. ده خالك يتمنى..

كانت هذه من أمه التي قالتها متوقعة أن حبها لأخيها متبادل.. ظانةً أن الدم لا يصبح ماءً.. متناسية أن الحياة أصبحت أصعب من اللازم..

- لو هتسافر برة زي ما بتقول يبقى نشوف الموضوع.. إنما أنا ماعنديش غير بنت واحدة مش عايزها تتلطم..

كانت هذه من خاله الذي أوضح أنه لا يريد لابنته المزيد من الشحططة.. هزّ عماد رأسه وتمنى لخاله ليلة سعيدة، وانصرف متحسرًا.. عاد لمنزله، أخرج كراسته القديمة المملوءة بخواطره.. وضع سن القلم على بداية سطر.. ويده تعتصر القلم حتى كسره.. جُرحت يده، وتشربت أوراق الكراسة دماءه.. ثم ألقى الكراسة أسفل السرير ليغطيها التراب..

***

أخذ خطوة أخرى نحو النفق، كاد ينزلق بفعل صخرة حادة لكنه تماسك، وتقدّم.. وتذكّر..

***

اليوم هناك سبّاك يزور خاله حاملاً علبة شيكولاتة طعمها لا يختلف عما يقوم بتسليكه..

ويتقدم نحو النفق..

اليوم سرّح صاحب ورشة الميكانيكا عددًا من الصنايعية كان هو منهم.. "الحالة نايمة زى ما انت عارف".

ويتقدم نحو النفق، ويرى النور البعيد القادم من قلب النفق..

اليوم قطع كراسته وجعلها تطير كالفراشات، بعضها عليه قطرات من دمه..

ويصبح على أعتاب النفق، وتقترب دائرة الضوء الحمراء أكثر..

اليوم لاحظ أن أصدقاءه سبقوه بالعديد من الخطوات في طريق الحياة..

يقف ويبتلع ريقه.. وينتظر الموت القادم..

اليوم علم أن والده مصاب بسرطان المثانة.. الأطباء يقولون إن هناك أمل: لكن العلاج سيكون مكلفًا نوعًا.. لكن كيف؟!

لكن كيف؟!

كيف أموت؟! سأل نفسه..

كيف أموت وأنا لم أصبح ناجحًا؟!

كيف أموت وأنا لم أحقق شيئًا من الثروة؟!

كيف أموت وأنا لم أنم على سرير مريح مطمئن البال بجسد غير منهك؟!

كيف أموت وأنا لم أركب طائرة؟!

وأنا لم أدخل أي "بورتو" من التي يعلنون عنها في التلفاز؟!

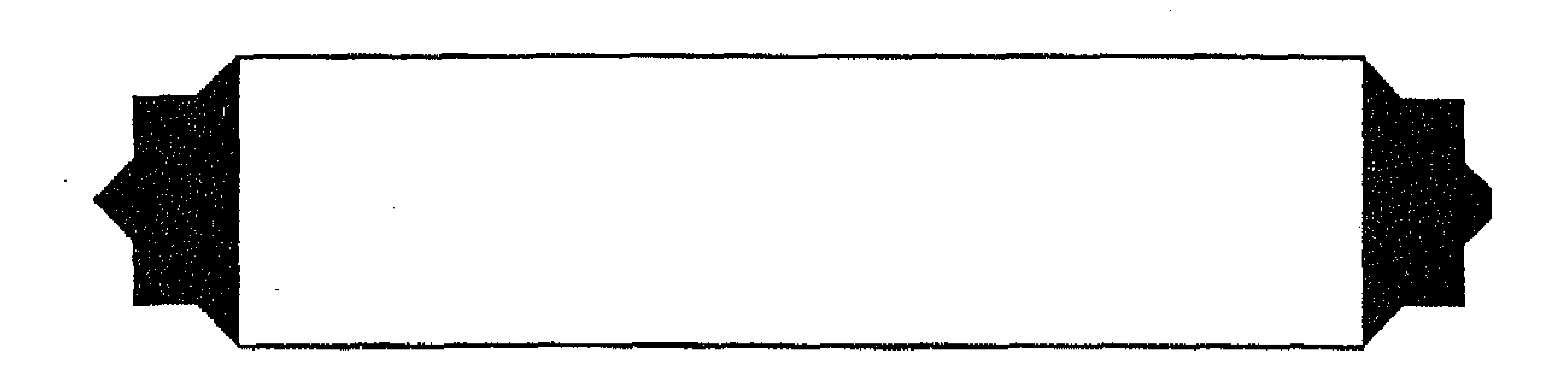
كيف أموت وأنا لم أتزحلق على الجليد؟!

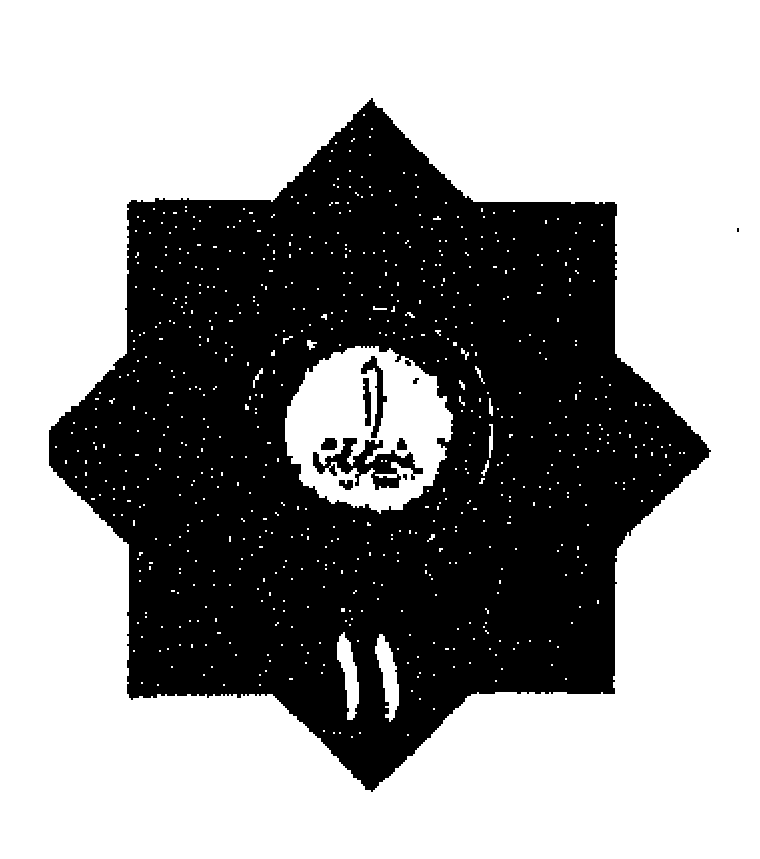
كيف أموت وأنا لم آكل البيتزا؟!

كيف أموت وأنا لم أُقم علاقة جنسية واحدة؟!

وفي لحظة واحدة أدرك أنه لم يحقق شيئًا ليموت الآن.. لن يموت مستريحًا.. لم يحيا ليموت.. ألقى بنفسه بسرعة عن مسار المترو.. وشعر بمدى دنوّه من الموت عندما أوشك الهواء الملتصق بالمترو على رفعه عن الأرض، حتى أن قدمه تحركت من مكانها لكنه تماسك.. أخذ يتحسس نفسه.. ويحمد الله.. مازلت حيًا.. مازلت حيًا.. ثم سمع المترو يصدر بوقه أراد أن يلتفت له ليودعه؛ لكنه لم يدرك ذلك.. فقد كان البوق الصادر هو بوق المترو القادم من خلفه.. وتناثرت دماؤه تختلط بالصخور الصلدة التي لا يؤثر فيها شيء، و التي علمت دون غيرها أن الموت كان قادمًا؛ لكن ليس من قلب النفق..

***





حكات سريعة بظهر يده لأسفل ذقنه النابتة.. يوجه رأسه إلى أقصى يمينه، ثم يضبط شفتيه ليتحولا إلى فوهة تنطلق منها قذيفة من بصاقه لتصيب أسفل الحائط خلفه.. ثم يعود فيُسند ذراعيه على السور الحديدي أمام عمارات معروف، وبمنديل مهترئ يمسح أنفه ثم يُعيد المنديل لجيب جاكيتته مرة أخرى.. ثم يرفع ذراعه ليمد سيجارته الـ(Viceroy) إلى فمه..

يُطلق الدخان من أنفه ثم تسحب أنفه بعض الهواء ليوجه بعدها قذيفة أخرى نحو الحائط.. يفرد ظهره ويلف نصفه العلوي يمُنى ويُسرى بقوة، حتى يسمع فرقعات فقراته لتكون إذنًا للرحيل..

لو اقتربت من وجهه لقرأت مجلدات عن التيه والضياع.. وعيناه تبحثان عن أي يد تنتشله قبل سقوطه.. هناك عدد من الأيادي لكنه يخشى أن يمد يده لهم فيتركوه.. فيضاف إلى مصاب السقوط مصاب الترك..

وتسمرت عيناه على شاب -يُقبل ناحيته- وجد فيه مُنقذه..

- سلامو عليكو..

- وعليكم السلام..

قالها الآخر وتجاوزه مكملاً مسيره..

- بعد إذنك بس.. ممكن ثانية واحدة..

قالها صديقنا متشبسًا بما بدا أنه أمله الأخير، وأكمل مباشرة بعد أن التفت الآخر له:

- أعذرني وقفتك كده.. بس أنا وقفتك لأننا شباب زي بعض وانت أكيد هتعذرني.. أنا محفظتي اتسرقت وماعيش في جيبي فلوس تروّحني حتى.. مامعيش إلا سجاير.. (وأخرج العلبة من جيبه) والموبايل أهو مفيهوش ولا دقيقة..

- طب.. أأ.. أنا ممكن أعملك إيه؟!

- أنا بس محتاج 3 جنيه ونص.. أروّح بيهم.. وأنا آسف تاني..

نظرة من الآخر إلى عين صديقنا يستشف صدقه.. ثم كان يُخرج من جيبه الخلفي عددًا من الجنيهات الفضية.. وأثناء إخراجها كان صديقنا يُكرر..

- أنا آسف.. أنا آسف جدًا..

- مفيش حاجة يا عم.. ده ظرف ممكن أي حد يقع فيه.. هما 5 جنيه الفكة اللي في جيبي..

- والله ما عارف أقولك إيه!

- ماتقولش حاجة يا عم..

- أنا ممكن أقابلك وأرجعهملك بعدين..

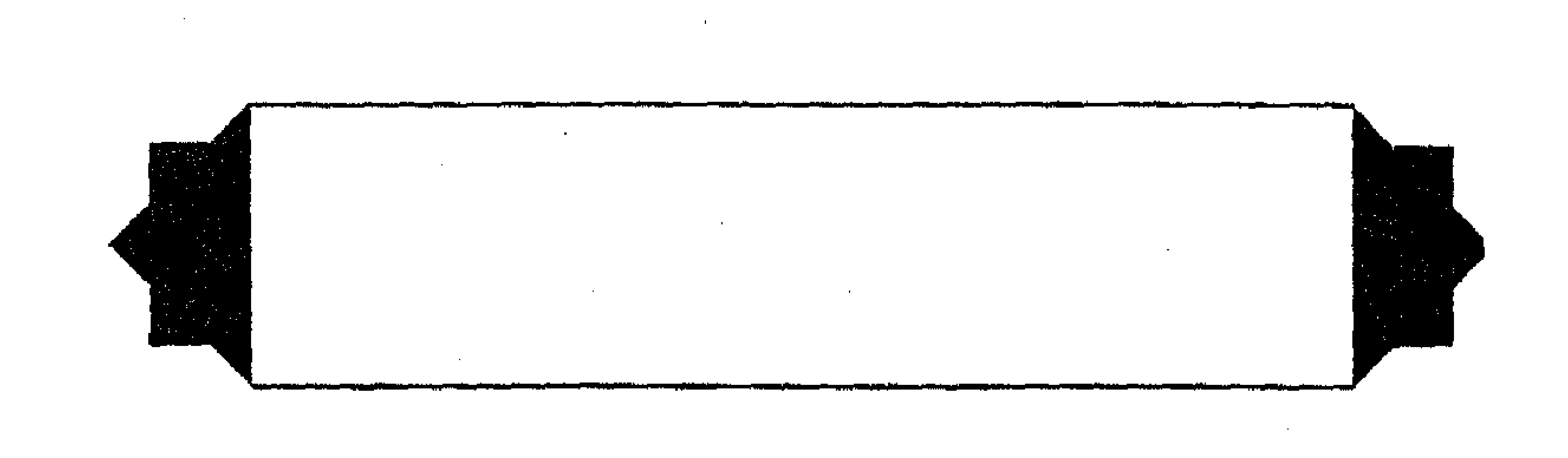
- يا زعيم ماتكبرش الموضوع..

- أنا متشكر جدًا.. سلامو عليكو..

يمشي صديقنا خطوات عدة بوجه تهللت أساريره، قبل أن يضع الجنيهات في جيب الجاكيت الداخلي فتُصدم بجنيهات أخرى، وتعود نظرات التيه والضياع مرة أخرى على وجهه.. وتعود عيناه لتبحث عن اليد المقبلة..

***


أنتصر الحق
فكنا جميعًا من الخاسرين




١٢

احتضن (هشام) نفسه بكلتا يديه ليحمي صدره من النسمات الباردة التي تُريد أن تتحرش به.. أراد أن يُشعل سيجارة ولكن لم يُرد أن يُضحّي بتلك الحالة الدافئة التي وصل إليها، والتي منحته نشوة خَدِرة، واكتفى بإطلاق زفرات من بخار الماء الأبيض.

أخذ نفسًا أخيرًا طويلاً من الهواء النظيف الذي لم يُلوّثه البشر بعد، ودلف إلى الأتوبيس الأحمر الكبير المتوجه إلى وسط البلد.. أسند رأسه على زجاج الشبّاك البارد وصنع بالتذكرة طرفًا مدببًا بدأ يرسم به على اللوحة التي صنعتها أنفاسه على الزجاج..

مسح بظهر إصبعه مساحة مربعة، وبطرف التذكرة رسم بعض الزخارف حولها لتُشبه البرواز.. وبدأ يُطلّ على الصور المتغيرة التي تُطلّ من بروازه.. صورة للشوارع التي بدأت تمتلئ بأطفال يرتدون الزي المدرسي وعلى وجوههم البسمات.. شاب في بداية مستقبله العملي يخرج مبكرًا ليصل مبكرًا ليترك انطباعًا حسنًا بين زملائه.. رجل عجوز يُرتّب كراسي القهوة.. الوجوه كلها صافية مطمئنة، وكأن هواء الصباح هو عبارة عن حشيش رباني يُوزّعها ديلر ملائكي.. تساءل (هشام) كيف تنقلب هذه الوجوه في وقت الظهيرة.. لابد أنها الشمس اللعينة التي تحرق الحشيش فلا يتبقى منه إلا دخان أسود يحرق الصدور والأعصاب، فتشتعل أدمغة الناس فيكرهون كل شيء حتى أجسادهم..

توقف (هشام) عن أفكاره عندما لاحظ أنه لم يبقَ من بروازه إلا 3 نقاط من المياه تتزلج على الزجاج.. وبجواره جلست امرأة يتضح أنها لم تصطبح.. يسند (هشام) رأسه على ظهر المقعد المقابل له ويُغمض عينيه.

***

7:00 AM

صرير هادئ من الفرامل يعلو قليلاً -تتراجع رأس هشام- ثم يهدأ مرة أخرى مع توقف الأتوبيس -تتقدم رأس هشام- ثم يُخرج الأتوبيس غازات معدته اطمئنانًا..

قبل أن تصطدم رأس (هشام) بظهر الكرسي كان قد فاق من غفوته التي لا يعلم لِمَ غفاها.. وبدأ يُلاحظ بعينيه نصف المفتوحة عدة ملاحظات لا معنى لها.. كمدى قذارة المقعد الذي كان يُسند رأسه عليه، وكأن القذارة تتراكم عليه من قبل الميلاد.. عدد إعلانات سماعات الأذن، ومراكز التأهيل العسكري، ومراكز تحت السلم للغة الإنجيلزية، والتي ستمنحك شهادة معتمدة من جامعة كامبريدج فرع الزقازيق.. والشخص الفارغ الذي كلّف كل وقته ليكتب في كل مكان (نداء.. ينتهي الغلاء إذا تحجبت النساء) ليحجز مقعده من الجنة.. حاول (هشام) أن يحجز مقعده مع الخارجين بصعوبة لتتلقفه هبّات الأمونيا الباردة من أسفل الكوبري.. يمشي قليلاً ليُراقب جموع البشر التي غزت الشوارع لتدير عجلة الحياة، وفكّر لحظة أن كل ما يفعلونه

ليس فيه أي حياة بل هو احتضار.. إنهم مجموعة من الموتى الأحياء يبحثون فقط عن قطعة اللحم التي سيُنشبون فيها أسنانهم، حتى لو لم يكونوا جوعى.. فرك عينيه بأصابعه ليُبدد ما تبقى من الملاحظات التي لا معنى لها، ويوقن بأن الاصطباحة الرباني تبددت تمامًا ولم يبقَ إلا أشواك الضيق تنغز ظهره..

يسير مكافحًا بين نداءات سائقي الميكروباص..

- أول عباس أول مكرم.. رايح فين يا أستاذ؟!

- عاشر.. عاشر.. عاشر.. رايح فين يا زعيم؟!

- السلام صلاح سالم السلاااام.. رايح فين يا برنز؟!

يدس نفسه في الميكروباص الذي وقف نصف راكبيه في الخارج حتى يركب سعيد الحظ في المكان المتبقي في الكنبة الخلفية.. لعن (هشام) الركّاب في سره، ولكنه ترك انطباع غير المبالي على وجهه.. وجلس في الخلف بين أربعينيان ينتميان إلى جماعة (أصحاب القضبان الكبيرة الذين يحق لهم فتح أقدامهم كما يشاءون)، حاول هشام أن يمنع رغبته في أن يلكمهما في خصاهما، والتي لابد أنها الشيء الوحيد الكبير في الموضوع.. ولكنه اكتفى بمحاولة الانضمام إلى جماعتهما بفتح قدميه، ولكن كل أحلامه تحطمت على أقدامهما الصامدة.. ضمّ (هشام) قدميه وأقنع نفسه أنه وضع مثالي للدفء.. وأسند رأسه منتظرًا غفوة تنتشله من مكانه..

صوت الشوشرة المرتفع الذي يغرق فيه إرسال إذاعة القرآن.. مع السائق الذي يحيك الطريق من أيسره لأيمنه وأصوات الأبواق، كلها معارك خاضتها الغفوة حتى تصل لهشام، وقبل أن يتم اللقاء كان موبايل (هشام) يهتز في جيبه..

- ألو.. ماتقلقش يا بو السِيد..(نظرة للطريق) أنا ربعاية وأكون عندك.. تلتاية بالكتير.. آه.. تعالالي بقي عند القهوة اللي اتفرجنا فيها على الماطش الأسبوع اللي فات.. مش هأخرك يا خويا ع الشغل.. ماشي.. سلام يا بو السِيد..

***

8:00 AM

يمسح (أبو السِيد) بقايا الفول ببقايا الرغيف ثم يرفع طبق السلطة ليمتص ماءه.. ثم يمد الكوب الألومنيومي في برميل المياه الأزرق الذي يغطي ماءه طبقة زيتية من أفواه الشاربين.. شرب وتجشأ وشعر أنه لو قام بالحبس بسيجارة لمات من فرط النشوة..

يضع عددًا من الجنيهات على عربة الفول أمام البائع..

- صباح الفل يا عبده.. (يقولها أبو السِيد وهو يُشير بجانب خفي نحو النقود)

فيتناولها (عبده) ويضعها في نصف زجاجة بلاستيكية موضوعة في الجانب الداخلي لعربية الفول بسرعة ويعود لخلط الفول، ويقول دون أن يلتفت..

- أصباح العسل يا أوساز محمه..

محمد السيد إذا تعاملت معه من منطلق الأوراق الرسمية.. وأوساز محمه هو اسمه إذا تعاملت معه من منطلق أنه موظف حكومي متزوج ويعول.. و أبو السِيد إذا تعاملت معه من منطلق عِشرة العمر أو العِشرة التي تبدو كأنها عِشرة عمر..

يتلفح (أبو السِيد) بشاله المرقط، وأثناء ذلك يرن موبايله النوكيا موديل (Nكشاف)، والذي يضعه في الجيب الداخلي للسويتر.. يرد..

- ماشي يا معلم.. مسافة السكة هكون عندك..

ثم يمتطي (أبو السِيد) الـ(JAWA 350) الحمراء وينطلق..

***

8:30 AM

سماعة الأذن المتصلة بالتليفون تنقل أزيز انتظار الرد.. بينما (مينا) ينزل على السلم ويمسح نظارته في طرف التيشيرت أسفل الجاكيت المفتوح..

- ألو.. انت يا بني.. ألووو.. ما توقف في حتة فيها شبكة يا عِلق.. انت فين كده؟ طب ما تستناني.. أبويا تعبان النهارده ومش هينزل وأنا قلّبت العربية من وراه.. كلم الواد (طوني) ونطلع طلعة.. طيب كلمه وعرفني..

***

8:35 AM

بظفر إصبعه الأصغر كشط (أبو السِيد) قشرة الفول الملتصقة بسنته، وأكمل موجهًا الكلام لهشام:

- طيب يا معلم.. وانت هتفضل كتير في الشقة اللي انت مأجرها دي؟

- أهو لحد ما العملية تفتح من عنده.. (وأشار هشام للسماء)

- ماشي.. بس لو الفلوس اللي معاك خلصت قبل ما تفتح.. هتعمل إيه؟!

- أومال أنا مقابلك ليه النهارده يا (أبو السِيد)؟ هو أنت مش ضامن الراجل بتاع الجورنال ده!!

- يا معلم الضامن هو الله.. أنا بحكي للراجل بقوله أنا عندي واحد صاحبي فنان بيرسم وبتاع.. قالي إنه ممكن يظبطك في شغلانة في الجورنال اللي هو شغال فيه.. غير كده معرفش..

- طيب اديله انت بس الفلاشاية اللي معاك دي.. وهي عليها حاجات كتير من شغلي.. قوله ممكن يشتغل كاريكاتير.. بورتريه.. أي حاجة..

ربت (أبو السِيد) على جيب السويتير:

- ماتقلقش.. بس أنا عايزك ترجع البيت تاني..

- يا بني بقى أنا سايب البيت ومأجر شقة وطالع ميتيني علشان أبعد عن وجع الدماغ.. وانت هتوجعلي دماغي هنا؟!

- ماشي يا معلم.. طب مش هنفرح بيك بقى (أبو السِيد يملأ الوقت بأي كلام)

- قصدك تفرح فيا.. اسكت يا بو السِيد.. اسكت..

- أديني سكت أهو.. لو مروّح تعالى أوصلك للمحطة، وعلشان أتكل أنا على شغلي كمان..

***

8:35 AM

يقف (رشوان) عند المحطة يُطالع الأتوبيسات القادمة.. ويقترب من شاب يقف بجواره:

- هو ده الأتوبيس اللي رايح رمسيس يا بني؟!

- لا يا حاج..

- طيب يابني لما بتاع رمسيس ييجي قولي.. أصل أنا معرفش حاجة في مصر..

يدخل أصلع بكرشه في الحوار..

- عربيات رمسيس الناحية التانية يا حاج..

- يعني الأتوبيس ده مش رمسيس؟!

- لأ.. الناحية التانية يا حاج..

ينظر (رشوان) إلى الجانب المقابل، والذي يقع في منتصف طريقه إليه قوائم خرسانية يعبر الناس بين فتحاتها ومن أعلاها..

***

8:35 AM

ينتقل الصوت عبر السماعة الخارجية من الموبايل الموضوع على الكرسي المجاور..

- ها؟ عرفت تدوّرها ولا لسه؟! (مينا)؟! انت ياض!!

- مش عارف أدوّر أمها.. دي أول مرة أركب 128 أصلاً.. ما انت عارف أبويا ما بيركبهاش لحد..

- طب ركّز معايا يا مغفل.. قبل ما تدوّر اديها سنّة بنزين، وماتشلش رجلك لحد ما تدور.. وبعدين خليها دايرة دقيقتين تلاتة قبل ما تطلع..

يزفر (مينا) ويُدير المفتاح مرة أخرى..

***

8:40 AM

كان (أبو السِيد) يتكلم، وكان الهواء وصوت محرك الجاوا يأكلان نصف كلامه..

- أحلى حاجة في الموتسكل.. إنك تقدر تمشي مخالف كده ولا......... تفك من الزحمة........ تمشي على الرصيف..

كان (هشام) يتمسك بسويتر أبو السيد، ولكن هذا لم يُجبره على الاستماع..

الطريق اللزج وبقعة مياه تكوّنت من الندى ولم تجف بعد.. (مينا) القادم بالـ128 مكافحًا.. ورشوان يعبر الطريق جريًا دون أن ينظر..

يميل (أبو السِيد) يسارًا ثم إلى اليمين مضطربًا.. يسقط الموتسيكل يمينًا ناحية الرصيف.. بينما هشام يسقط ناحية الشارع وترتطم رأسه بالأرض.. وعلى بعد خطوات إطارات الـ128 تتجه نحو رأسه.. يضغط (مينا) الفرامل وتزمجر السيارة قبل أن تتوقف على بعد خطوة من عين (هشام) المفتوحة والتي سطعت بها صورة ما..

تحوطهم الجموع المحوقلة والموحّدة والسائلة عما حدث.. تنفض الجموع حين يقوم (هشام) نافضًا ملابسه ومؤكدًا أنه بخير و(أبو السِيد) ينطلق إلى عمله، وقد امتلك قصة ليحكيها اليوم.. و(مينا) ينطلق بالفيات باحثًا عن أول دوران ليركن السيارة التي سيحكي لكل الأرض أنها أتت لهذه الدنيا سِفاحًا.. و(رشوان) الذي لم يلتفت خلفه، وحين وصل إلى ضفة الطريق المقابل كانت الأمور قد عادت لطبيعتها فاقترب من أحد الواقفين:

- والنبي يابني هو أتوبيس رمسيس بيعدي من هنا؟! أصل أنا معرفش حاجة في مصر..

***

12:00 PM

17 missed calls

صفارة الصداع تصيح مرة أخري في رأسه تعلن وصول إعادة المشهد بزاوية أخرى.. للمرة الكم؟! لم يعدّ.. ولم يعدّ الخطوات التي خطاها ولا الشوارع التي تجاوزها.. ولا لِمَ هو هنا..

هو هنا ليرى هذا المشهد، طفل بملابس لمدرسة يخرج من مطعم الكشري وهو يربط كيسًا بلاستيكيًا شفافًا يحتوي على كمية من الكشري.. وبجوار المحل طفل بملابس مهلهلة لا يظهر منه إلا عينان تتعلق بكيس الكشري..

روادته فكرة نفضها بعيدًا عن محفظته.. قبل أن تصبح صفارة الصداع لحظيًا.. ترى لو كنت مت صباح اليوم هل كانت نقود محفظتك ستكفل لك الحياة لآخر الشهر؟! نفض عن رأسه تلك الأسئلة العجائبية التي تطرق رأسه وهو يدخل إلى المطعم..

- بكام؟!

- بجنيه ونص..

- هات عشرين..

دقائق اغتصبت فيها رائحة النشارة والتقلية أنف (هشام)، ثم خرج متوجهًا إلى الطفل الأول.. ناوله كيسًا.. ثم لطفل آخر.. ولا يعلم متى وجد نفسه محاطًا بالأطفال ولا متى لم يبقَ إلا كيس واحد في يده..

على الرصيف يجلس هشام.. يمتص الكشري من طرف الكيس، ويده الأخرى تعبث في أزرار موبايله..

17 missed calls 1 new message

((يمكن يبان كلامي أوفر ومانصدقيش، بس أنا النهارده الصبح عملت حادثة ومعرفش ليه شوفتك قدامي.. أنا عايز أشوفك))

***

02:00 PM

- إيه كنتي متخيلة إني هجيلك متربط زي المومیا؟ (يقولها هشام مبتسمًا ويداري ابتسامته بكوب الشاي)

- مش للدرجادي.. بس انت كنت قاصد تخضني!!

- آه.. لأ.. أنا كنت محتاج أشوفك.. أنا فعلاً عملت حادثة.. وكان بيني وبين الموت خطوة.. لما الموت قرب عليا غمضت عيني.. شوفتك.. كأنك قدامي..

-....

- انتي الوحيدة اللي جيتي في بالي.. وأظن إن ده ليه معنى.

- هشام.. ماتحاولش تفتح كتاب اتقفل وغطاه التراب و...

- مش مصدقك.. ومظنش إن اللي بيننا نسيتيه في أسبوعين.. وحتة إنك مابترديش عليا دي مش كره.. ده خوف.. انتي خايفة تكملي حياتك مع واحد حياته مش متظبطة وفـ لحظة ممكن يغرق ويغرقك معاه..

-....

- أنا جايلك النهارده أسلمك مفاتيح حياتي.. ظبطيها واللي هتقولي عليه هعمله.. أنا هسمع كلامك لأنها مش حياتي لوحدي.. حتى لو قولتي إننا منكملش أنا مش هناقشك طالما ده اللي انتي عايزاه..

ارتفع حاجبها الأيمن وجانبا فمها قليلاً دون أن تدري..

- هي الخبطة قلبت معاك برومانسية ولا إيه؟!

وعلى المنضدة تلاقت أصابعهما.. ولكز (هشام) الصداع الذي جاء ليصيح في أذنه دون مراعاة للموقف..

***

04:30 PM

جرس الباب..

توقف والد هشام عن المضغ ليسدد نظرة لـ(عصام) الأصغر.. جعلت عصام يبتعد عن الطبلية متوجهًا للباب، وقد انطلقت منه غمغمات انتهت مع وصوله للباب.. وقف على أطراف قدمه ونظر من العين السحرية.. ثم فتح وقد انطلقت منه صيحة فرحة:

- هشاااام..

وما إن دخل هشام تعانقا.. وعلى صوت عصام قدمت الأم وابنتها (إلهام) من المطبخ.. (هشام)، (إلهام)، (عصام)، هكذا أسماهم والدهم على وزن اسمه (سلام)..

- كده يا هشام.. ماتسألش علينا بالأسبوع؟!

- البيت وِحش من غيرك..

- إيه الكيس ده؟!

خطف عصام الكيس وجرى نحو الصالون.. بينما (سلام) لم يهتم وأكمل مضغ طعامه.. يدخل هشام وما إن يلمح والده فيُقبل عليه ويُقبّل رأسه.. بينما والده يكمل دور غير المهتم للنهاية، وحين أراد أن يُحرّك لسانه.. كان عصام يصيح:

- بلاي ستيشن.. بلاي ستيشن.. ده بتاع مين ده؟! إيه ده، وإيه السيشوار ده؟! وإيه الطرحة الحلوة دي؟! وإيه ده؟!

وزّع (هشام) هداياه وسط قبلات واحتضانات وعدم تصديق.. وعاد ليجاور والده بذلك الشيء الذي لم يعرفه عصام:

- دي عباية صوف جملي ليك يا حاج..

حاول (سلام) أن يدفن انفعالاته ولكنها صعدت لتغرورق عيناه.. فدفن عينيه في اللامكان..

***

06:00 PM

في البلكونة.. أبخرة الشاي بالنعناع مع الغروب مع هدوء الصداع أعادوا (هشام) لحالته الصباحية.. تبًا، هل لازلتُ في نفس اليوم؟! انتشله كلام والده:

- يعني عقلت واشتغلت بشهادتك؟!

- أيوة يا حاج..

- ومرتبها كويس؟!

- الحمد لله.. وبعدين أنا لسه في الأول.. وهيتحسن مع الوقت..

- شوفت.. أديك سمعت الكلام في الآخر أهو.. بدل الرسم والكلام الفاضي ده اللي مش جايب همه..

- المهم إنك تكون راضي يا حجيج..

-.... راضي عنك.. بس كده هترجع تقعد معانا، وأنا اللي كنت ناوي أبعتلك أمك الأسبوع الجاي..

ضحكاتهم لم تنتهِ حتى خرج (هشام) من البيت مع وعد بالعودة بعد أن يُلملم حاجياته من الشقة..

***

08:00 PM

يدخل هشام إلى العمارة التي بها شقته المؤجرة، وفي يده كيس يحتوي علبة بها لمبة موفرة وشريط كتافلام 50 أعطاه له الصيدلي بعد أن اشتكى له من الصداع والآلام المتفرقة، يُخرج اللمبة ليُبدّل اللمبة المحروقة التي كانت يومًا تُنير السلم.. تُبدد لمبته ظلام السلم فيصعد..

في شقته ازداد شعوره بالميل للقيء حتى غلبه، تلاه بدش دافئ.. ثم أمسكت المصلية باتجاه بصره، فقام وفردها وصلى ركعتين بدون نية.. ثم تناول قرصين من الكتافلام واستلقى على سريره.. قلّب في قائمة الأسماء في موبايله.. هناك عدد من الأصدقاء الذين فرّقت الخلافات بينهم.. عندما يُفكّر في تلك الخلافات الآن يكتشف مدى تفاهتها..

أرسل عددًا من الرسائل المعتذرة عن أي خطأ كان من ناحيته، وورده عدد من الاتصالات غير المصدقة.. وبقي يحملق في السقف وهو يفكر في يومه.. حينما اصطدم بالأرض وأغمض عينيه في الحقيقة لم يرَ أي شيء، ولكنه رأى أنه يستحق فرصة ليُصلح بعض أخطائه.. وأول خطأ أنه لم يحاول أن يُظهر مشاعره لأي أحد من قبل.. سواء كانت مشاعر حب أو احترام أو عطف.. واتخذ قرارًا أنه سيُوضّح دومًا للآخرين أنه يفعل ما يطلبونه ولكنه سيفعل ما في رأسه.. ليس عِندًا ولكنها حياته التي يجب عليه أن يتخذ القرارات المثلى لها.. ولكنه لن يحرم الآخرين من الشعور بأنه يهتم لكلامهم.. حتى يريحهم ويريح رأسه.. اليوم صرف جزءًا لا بأس به من التحويشة.. ولكنه سيُنفّذ خلال هذا الشهر مشروع مكتب التصميمات الذي اقترحه عليه أحد الأصدقاء أن يتشاركا فيه من قبل.. لن يذهب للجورنال ولن ينتظر فرصة.. سيتحمل المخاطر كاملة ويفتح مشروعه، وسينجح لأنه لا يملك خيارًا آخر.. تخيّل كثيرًا من مستقبله حتى نام..

***

11:30 PM

تقلّب (هشام) في سريره.. وتساقطت نقاط من الدم من أذنه.. وسرى شلل في أطرافه..

***

جزء من التقرير الطبي:

تعرضه لإصابة في الرأس جراء حادث بتاريخ / / مما أدى إلى حدوث نزف دماغي أدى إلى سكتة دماغية أدت إلى الوفاة..

17 missed calls

1 new message

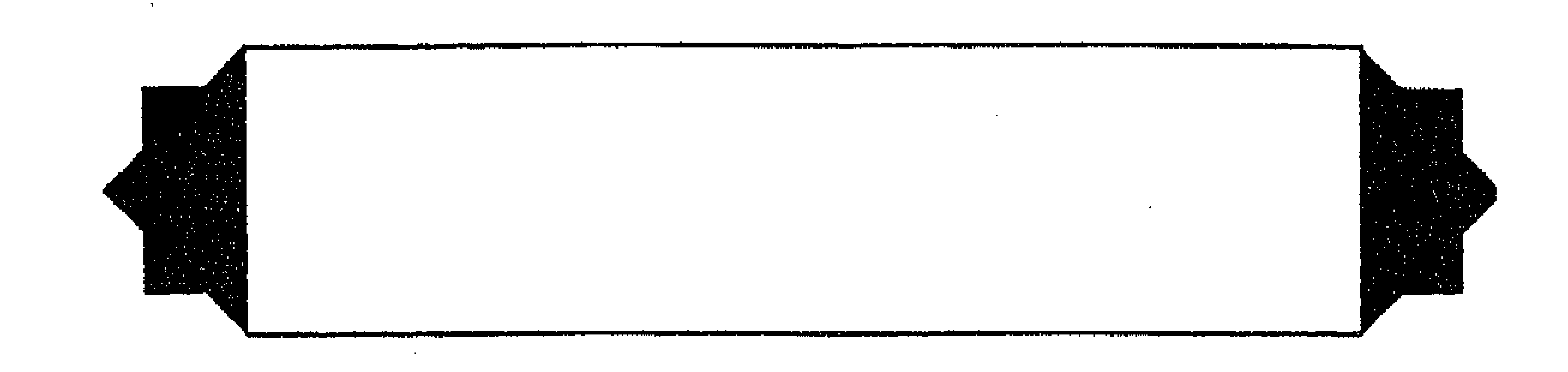
((ليه؟!!!!))

***

"الشعب يريد إسقاط الخيار"
هكذا كان هتاف المظاهرات التي رفعت درجة حرارة الثلاجة،
وكانت الفاكهة على رأس المظاهرات.. وفي أحيان كانوا يستبدلون
(الخيار) في الهتاف بـ(الخضار) تعبيرًا عن رفضهم للعائلة بأكملها..

ومع اشتعال المظاهرات اختفت الشرطة الباذنجنية، واتخذت قوات
الفلفل موقفًا محايدًا حتى سقط الخيار.. وعمت الفرحة أرجاء الثلاجة،
وأجريت انتخابات فازت فيها (الموزة) باكتساح، واعتُبر فوزها انتصارًا
للثورة..

ووصلت الموزة للدرج الرئاسي..
وبعد أن أظلمت الثلاجة.. وقبل أن
تخلد الموزة للنوم تأكدت أن لا
أحد يتلصص عليها، ثم خلعت
قشرتها، وأخذت نفسًا طويلاً
وهي تتحسس جسدها الأخضر..



١٣

((بداية التسجيل))

- السلام عليكم..

- وعليكوا..

- عم رضا؟!

- ساعات..

- أنا صحفي بجهز لتقرير وعايز أتكلم معاك..

-.....

- ينفع أتكلم معاك شوية؟!

- اتكلم.. بس ماتوجعليش مرارتي.. صحيح مين اللي دلّك عليا؟!

- أصلي بقالي ساعة بحاول أطلع بكلام مع أي حد من اللي شغالين ع الكورنيش.. محدش راضي يتكلم.. لحد ما بواب العمارة اللي هناك دي دلني وقالي محدش هيرضى يتكلم إلا رضا بتاع البطاطا..

- جمال ابن النجس.. هو إيه البتاع اللي انت حطه جمبنا ده من الصبح؟!

- ده جهاز بيحوّل كلامنا لكتابة وبيجهزها للنشر مباشرة..

- آه.. طيب..

- عم رضا.. هو انت هنا من زمان؟!

- يوووه، بقالي بتاع 30 سنة أهو، من 2006.. 2007.. من أيام ما كان النيل أعلى ببتاع 5 أشبار وكان فيه كورنيش تمشي عليه.. قبل ما الأسوار دي تتعمل وكأن النيل ده أمهم اللي جايبهالهم.. ده رغيف العيش كان بـ5 صاغ.. الدنيا غليت واحنا رخصنا.. أنا مش هقولك زمان كانت الدنيا كويسة لأن الدنيا طول عمرها زي الزفت، بس كانت أحسن برضه.. أو يمكن ماكنتش..

- طيب معلش يا عم رضا، أنا عايزك تحكيلي شوية على الأحداث بتاعة 2011..

- يييه.. ما أنا قايلك مرارتي تعباني ومش ناقصة..

- ألف سلامة.. هو بس أنا بعمل تقرير عن أحداث يناير 2011، وبما إنك كنت قريب من التحرير وقتها فأكيد عندك حكاية حقيقية عن اللي حصل..

- بص يا بني، مفيش حاجة اسمها الحقيقة.. لما تكبر هتعرف.. اللي حصل محدش عايز يعرفه ولا حد عارفه أصلاً.. أنا يمكن كنت موجود بس كداب ابن كلب لو قلتلك إني شفت كل حاجة، ولو شفت أبقى

كداب ابن ستين كلب لو قلت إني فهمت كل حاجة.. لو عايزني أحكيلك حكاية أنا ممكن أحكيلك حكياتها!

- حكاية مين؟!

- دي واحدة قابلتها في التحرير وأنا قدك كده.. وكان معايا عربية بطاطا تانية، بس الفرن بتاعها كان بالحطب.. أيام الأحداث بتاعة 2011 روحت الميدان عشان أسترزق.. الناس كلها كانت بتنزل.. ليه؟! معرفش.. لكن كل الناس كانت هناك، وكنا بنسمع إن لو الناس فضلت الدنيا هتبقى أحسن والفقر هيختفي ومصر هترجع تاني.. هي إمتى كانت موجودة أولاني!! مش مهم.. المهم أنا قلت أكل عيش وأشارك مع الناس.. وشوش كتير عدت ع العربية والتليفزين صوّر معايا كتير، ومفيش غير وشها اللي علّق معايا من كل الوشوش.. وكانت كل فترة تيجي عند العربية، ومرات أقولها الحساب عليا ومرات ترفض ومرات تقبل.. وبقت ابتسامتها هي الحاجة اللي بتهوّن الكام يوم اللي قبلها.. ماحصلش بينا كلام كتير.. ماقدرش أقولك حب من أول نظرة والكلام العيان ده.. بس يمكن ليه اسم تاني أنا معرفوش..

حصل حاجات كتير في الميدان على طول السنين بعد ما شوفتها، وكانت دايمًا موجودة.. وشوية شوية بقت تتوه عن عيني.. وساعات ألمحها ماتشوفنيش، وساعات تلمحني ماشوفهاش.. لحد ما فيه مرة برضه من المرات اللي نزل الناس فيها الميدان.. وكالعادة المشهد كله محاط بدخان القنابل مع دخان السجاير مع دخان الحطب، مع أصوات ناس

بتدق على صاج المحلات بطوب وصوت ناس بتزعق.. ومن بين ده كله كان فيه صوت صرخة.. عملت نفسي مش واخد بالي وفضلت في مكاني بالعربية.. المكان اللي سهلي الهرب والجري في كل مرة..

آه أنا مش هقولك أنا بطل.. أنا أصلاً مش عايز أكون البطل اللي يموت علشان شوية أنجاس من هنا ولا هنا يوصلوا للحكم على سلم جسمي يبقى درجة فيه.. ملعون أبو الكل......

- سكت ليه؟!

- مفيش.. صعبان عليّ الناس اللي ماتت شبان قدك وأصغر منك، راحو علشان ولا حاجة.. وعلشان لعبة بيلعبها الكبار في أي ناحية.. جيش بقى، إخوان، جن أزرق.. أهو كله زفت..

خلينا في موضوعنا، بعد شوية وأنا في مكاني لقيت واد أعرفه بعربية فشار بيقولي خلي بالك من العربية خمسة وراجع.. بقوله فيه إيه؟ قالي العيال زانقين بنت عند السور.. قالها وجري علشان يلحقله حتة.. ساعتها دماغي ربطت الصرخة بالكلام، ومعرفش إيه اللي خلاني أجري لحد ما سبقت الواد.. وصلت لقيت أمم ملمومة.. وألسنة مدلدلة وإيدين بتتمد.. حاولت أدخل ما بينهم علشان أشوف ملمومين على إيه.. ومعرفش إمتى وقعت بين الرجول.. الجرح اللي فوق عيني ده من يومها.. وببص من بين ده كله لقيتها هي واقعة تحت، هدومها متقطعة

وإيدها على صدرها وإيدها التانية بتحارب بيها الهواء.. وإيدين كتير بتهبشها.. وبس..

- بس إيه؟!

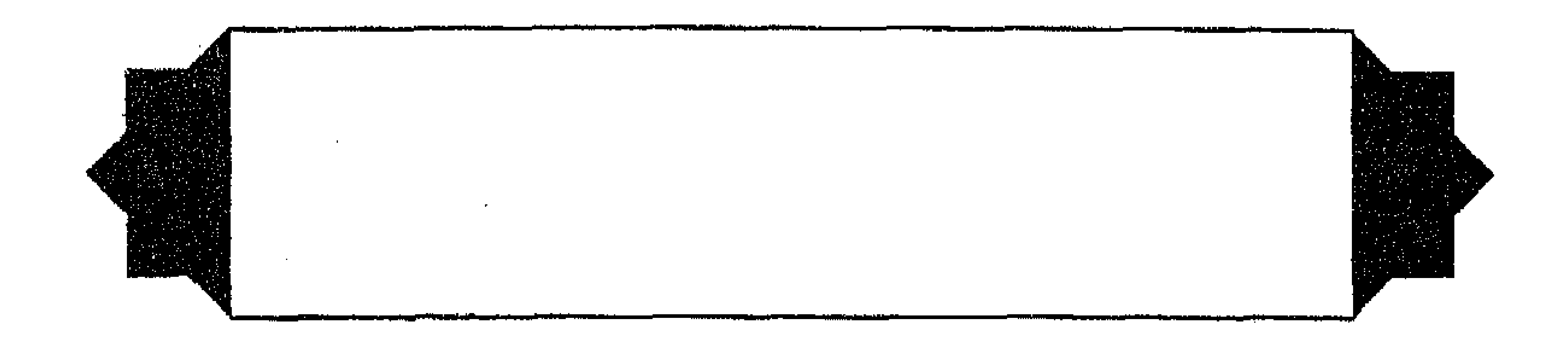
- ماشوفتش حاجة تاني..

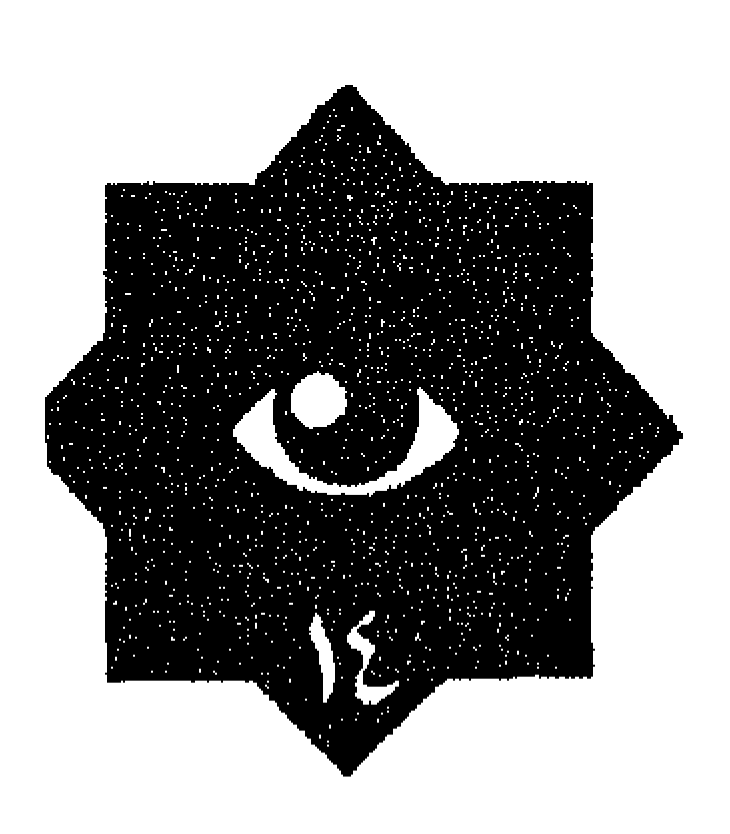
- طب وماشفتهاش بعد كده؟!

- لأ.. شوفتها.. تقريبًا كده 2020.. 2021 حاجة كده.. كانت ماشية بهدوم مقطعة وبشعر منعكش وبوش مطين.. وتقريبًا مخها اتلحس.. وشافتني معرفتنيش..

طب أقولك حاجة أحلى؟! أنا أصلاً مسميش رضا.. تاخد بطاطا؟! أحطلك ملح؟!

((نهاية التسجيل))




١٤

طرقات كعبها العالي تطرق ميدان الإسعاف، تُشير إلى سيارة تعبر بعد انفتاح الإشارة، وتصطنع التعجل حتى تعبر الطريق.. مع أبواق السيارات التي تتعجل السائق المتوقف الذي تحركت شفتاه بألف سُبّة..

تدس جسدها وسط محتلي الرصيف من الباعة الجائلين والمتلكعين للنظر إلى ما يباع، وتأخذ موضعها مجبرة بين تيار البشر، وتسير معهم بطاقة الدفع الذاتي حتى تجد نفسها تقف أمام فاترينة لمعرض ملابس العرائس.. يجذب عينها أحد الفساتين، تقف أمامه وتضبط انعكاس وجهها حتى يحل موضع وجه المانيكان.. لسعت نشوة باردة كتفها الأيمن، ابتسمت وانتوت للمرة المائة أن تقوم بعمل ريجيم حتى تُصبح في مثل حجم المنيكان..

تنضم لتيار الزحام مرة أخرى وهي تتأبط حقيبتها التي تحوي حوالي 30 جنيهًا فكة، و100 جنيه موضوعة في جيب سري للظروف، ونسخ لعدة أوراق لتقديمها في أي مكان به وظيفة خالية..

تبحث بعينها على واجهات المحلات عن كلمة (وظيفة خالية).. تسير وتنظر.. ثم يمر بها خاطر أنها حقًا تكره هذا الكعب العالي والذي تسمع طرقاته في عمودها الفقري.. فليكن ما يكون، هذا هو اليوم الأخير في

الكعب العالي وفي البحث عن وظيفة.. وأخرجت لبانة سمارة من الحقيبة وبدأت في مضغها..

***

طرقات كعبها العالي تأخذها تجاه التحرير.. تُطلّ على الميدان المغلق بالمتاريس والذي نُصبت فيه عدة خيام لمعتصمين.. تسأل نفسها ماذا يريدون هذه المرة؟! هي لا تُحب السياسة وتقلب القناة إذا ما صادفت نشرة إخبارية أو برنامجًا يظهر فيه أحدهم وهو يقول (في الواقع) أو (التاريخ بيقول كده).. لم تنتخب أحدًا في الانتخابات الرئاسية.. وفي كل انتخابات تتصل بها صديقاتها ليخبروها أن عليها أن تُرشّح فلانًا.. فتخبرهن أنها كانت لتفعل لو لم تكن بطاقتها ضائعة.. واستمرت في ادّعاء فقدان البطاقة لكي لا تفقد واحدة من صديقاتها الأربعة اللاتي لازلن يذكرنها بلايك عندما تُغيّر صورتها على الفيسبوك بصورة كارتونية أو بمنشور من تطبيق سُنن أو مصطفى حسني..

كانت هي (قلبوظة) تلك الشلة الخماسية.. ذات الابتسامة الواسعة، تملك حوض سمك، وبينها وبين كل أطفال العالم حلقة وصل تم وصلها قبل بدء التاريخ، فهي تعلم كل تلك الحيل الغرائبية التي تُضحكهم.. مع مرور السنوات واندفاعها نحو حافة الثلاثين تساقط

منها الكثير.. خملت الابتسامة وأصبح حوض السمك فارغًا وأصبح الأطفال يبكون عندما تحملهم.. وتساقطت صديقاتها في أخاديد الزواج والعمل.. وبقيت هي دون أن تُعطيها الدنيا ورقة تحمل مبررًا لعدم سقوطها بأحد الأخاديد.. أم إنها هي من سقطت سهوًا من حسابات الحياة؟!

تمشي بخطوات مترنحة على الرصيف المتكسر في اتجاه خروجها من الميدان.. تنوي النزول عنه ولكن ينحشر كعب حذائها في أحد الكسرات.. تجذب قدمها بقوة حتى حررت الحذاء.. وتُكمل سيرها.. تشعر بالحذاء لم يعد كما كان..

تنفخ.. تستغفر.. تسير..

***

طرقات كعبها العالي لم تعد كما كانت، واختلّ لحنها.. بلحنها المختل تقطع ميدان طلعت حرب.. تنتقل من رصيف لآخر تُتابع بعينها المحلات.. (آنسة للعمل)، اصطدمت عينها بالكلمة فتحركت قدمها دون تفكير.. وقفت تقرأ الإعلان.. مطلوب آنسة للعمل، لا يُشترط الخبرة.. لاحت ابتسامة على شفتيها.. (يُشترط حُسن المظهر)، تنظر

لانعكاس وجهها على زجاج المحل.. تتبدد الابتسامة وتُقرر ألا تدخل هذا الاختبار..

تُكمل سيرها بخطوات شابها سخط لم يتحمله كعب الحذاء العليل، فانكسر أسفل منها.. كادت تسقط على وجهها لكنها تتمسك بالسور الحديدي.. تثبت على وضع التماسك قليلاً.. تحمد.. تنتفس بسرعة.. تجلس على الرصيف..

***

"انزلي شوفيلك شغلة.. يمكن واحد يشوفك ولا حاجة يا بنتي بدل القعدة دي.."

أمها ترى أن الزواج هو غاية تلك الحياة ومنتهاها.. أما هي فتدفن رغباتها حتى يأتي اليوم.. ولكن أمها تنبشها كل فترة فتخرج ما بداخلها في صرخات وغضب ونوم يتخلله غفوات طويلة..

قامت حاملة أثقالاً نفسية على أثقالها المادية.. خطت خطوات عرجات لا تلوي على شيء..

***

هي في كافيه لم تستطع قراءة اسمه المكتوب بالإنجليزية، فطالما كانت الحروف المشبّكة من مشاكل الإنجليزية الكثيرة التي جعلتها لا تتعلم تلك اللغة بشكل جيد.. رغم أنها لا زالت تسهر كلما وجدت فرصة للاختلاء بالتليفزيون أمام mbc2 مع كوب الشاي باللبن وصينية الكيك التي تصنعها، والتي تصلح كأحجار للبناء..

هذا الكافيه سيفتك بالفكة التي معها، ولكنه كان موجودًا حيث لم تستطع إكمال السير عرجاء.. دخلت وطلبت كانز بيبسي.. على أمل ألا تكون هناك مبالغة كبيرة في سعره المعروف..

انتظرت المشروب وهي تغوص في ذلك الكرسي المريح، وبدأت تُزحزح قدميها وأتعابها عن الحذاء بعد أن سرّبتها أسفل المنضدة القصيرة.. ودارت بعينها في أثاث المكان واللوحات و.. تلك العين الزرقاء استوقفتها.. عين زرقاء تتأملها هناك..

توقفت لحظات.. ولا تعلم من أين أتى هذا التيار البارد الذي شمل صدرها.. أخذت نفسًا وأشاحت بوجهها تُحاول أن تُثبّت عينها بشيء هنا أو هناك.. وسريعًا عادت لتلك العين المحدقة بها..

شاب هو، ذو ذقن خفيفة يتناول فنجان قهوته الصباحية.. ويرسل بعينه نظرات عابرة المناضد تصطدم بها بكل قوة.. وضع النادل

البيبسي فتصنعت انشغالها بفتحها، تلعثمت أصابعها وكادت تكسر ظفرها.. حتى فتحتها، وبدأت تصبها في كوب به قطع من الثلج، وأثناء صبّها خطفت نظرة.. فوجدته مبتسمًا، فلتت ابتسامة من وجهها.. وأعادت ظهرها لأحضان الكرسي.. وتساءلت "ماله ده؟!" وكانت الابتسامة لازالت على وجهها..

حاولت أن تُخفي ابتسامتها، وأخذتها خيالاتها، حتى إن منضدتها تطاولت حتى أصبح يجلس معها على نفس المنضدة يتناول قهوته، قبل أن يأخذ تلك الحقيبة التي بجواره، يتوجه إلى عمله، وامتدت المنضدة حتى شملت طفلة صغيرة في الجوار.. ستقوم بتجهيزها لتذهب إلى مدرستها.. أما في الصيف سيذهبون إلى الإسكندرية مثل كل عام، يجلسان معًا على الشاطئ بينما طفلتهما تلعب في الماء أمامهما..

البحر أعادها إلى عينه الزرقاء وإلى ابتسامتها..

ستُنظف بيتها باستمرار وستجعله قطعة من الجنّة، وستعيش حياة شاهدتها كثيرًا في مسلسلات mbc4.. سترتاح وتضع همومها عليه، وستترك له قيادة دفة حياتها حتى الـ..

حتى يحمل حقيبته ويحاسب النادل ويرحل من الكافيه..

خرج هو وأطلّ علها قبل أن يخرج، فذهبت بوجهها بعيدًا تُداري تعبيرات وجهها.. أما هو فبعد أن خرج للشارع وضع نظارته السوداء.. وتحسس حقيبته حتى فتحها، وأخرج عصا بيضاء قابلة للطي في نهايتها كرة بيضاء يري بها الطريق..

أما هي فجلست كثيرًا حتى اتصلت بها والدتها لتطمئن علها.. وخرجت لا تهتم كثيرًا بما دفعت.. وقفت في الجوار.. كسرت الكعب الآخر، ورحلت متقافزة سعيدة، تُفكّر أن غدًا لن يكون يوم سيئًا للبحث عن وظيفة، وربما للمرورعلى هذا الكافيه..

***

الو.. ازيك يا صاحبي؟ أنا تمام ماشي الحال..

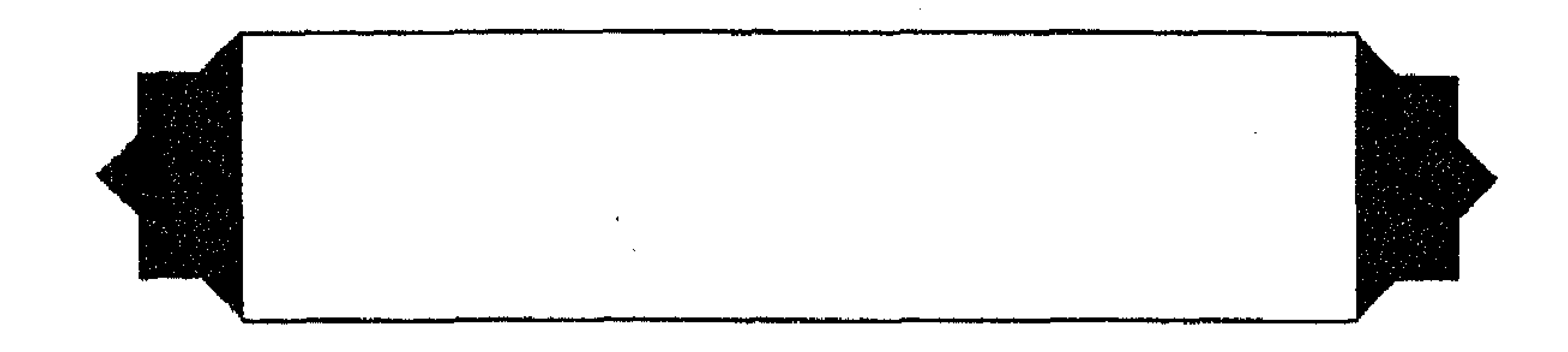
لأ..

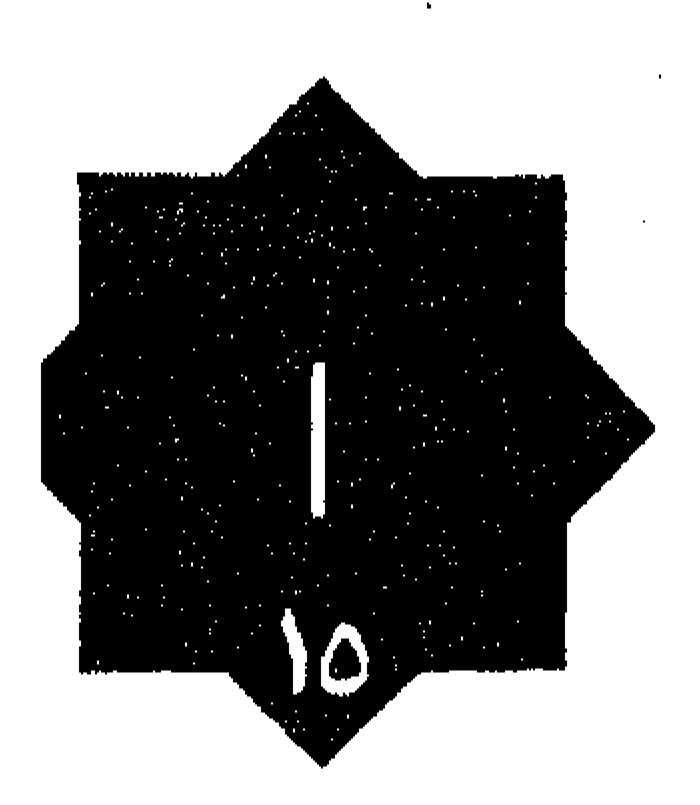
بس ناوي أنزل أشوف إيه اللي بيحصل يمكن أفهم..

آه صحيح..

أمانة عليك لو مُت متخليش أي ابن وسخة يقول إني كنت واحد منهم..

سلام




ا
١٥

إنها النهاية..

الكوكب يحتضر بعد أن سممه البشر..

الكوكب يتألم..

يتمغص..

يصرخ..

ولا يوجد علاج..

فتُطلق الرحمة الإلهية طلقة الرحمة..

***

الأمر حدث كثيرًا من قبل.. نبوءات نهاية العالم هي صفة أساسية لهذا العالم، وربما لا يستطيع البشر العيش من دون أن تكون هناك نبوءة تحمل تاريخ النهاية.. لذا دائمًا يتم تجديد هذا التاريخ كلما مرّ..

لكن يبدو أنها نهاية العالم حقًا.. هناك كويكب حدث تغير عجيب في مساره وهناك احتمالات كبيرة تتجاوز الـ80% أنه سيصطدم بالأرض.. هناك من يؤكد، هناك من ينفي.. تتضارب تصريحات المؤسسات العلمية الكبرى التي لا نتخذ منها إلا موقف المتلقي.. فتبدأ تدرك أنها بالفعل النهاية..

لا أهتم بالعالم كثيرًا، ولكن اهتمامي بالطبع بدائرة الأشخاص التي كانت حولي.. حين تحلّ النهاية تنحلّ الدوائر.. حين يدوي انفجار النهاية يتباعد الناس إلى أقصى الجوانب.. فتمتلئ دور العبادة أملاً بتحصيل المتعة الناقصة في الآخرة.. وتمتلئ دور الدعارة والخمارات أملاً بتحصيل المتعة الناقصة حالاً والآن..

رجال الدين يقولون إنه غضب الرب الذي لن يُصلحه إلا الدعاء.. رجال الإعلام يقولون إن الأمر خطير ويجب أن تستمروا في متابعتنا.. رجال السياسة يقولون إن الأمر ليس كما يُصوّره الإعلام والحلّ في التزام الهدوء.. العسكريون يقولون الحل في أن نتولى نحن الأمر.. أما العلماء فصمتوا، وقال صمتهم إنه لا حلّ إلا أن نبقى في معاملنا حتى تمرّ تلك الأيام..

لماذا النهاية الآن؟! ولماذا ليس الآن!!

ما الذي فعلناه لنستبقي هذا الكون؟! دعنا من أننا أتفه من أن نُؤثّر في هذا الكون، ولكننا -بغبائنا- أخللنا بتوازن أحد أجزاء الكون، والتالي ما هو إلا رد الفعل..

الكون سيُدافع عن أحد أجزائه.. كوكب الأرض.. كوكب الأرض الذي لن يأسف علينا يومًا ما.. بعد أن استغلّ الإنسان كل موارد هذا الكوكب بكل كائناته ليعيش هو، بحجة أنه الكائن الرئيسي الأذكى المتحكم الأقوى الـ.. لا يهم.. من يلعب بقواعد اللعبة فليتحملها

للنهاية.. ولذا فعلينا أن نتحمل ذلك الخصم الذي يريد أن يلعب..ونتحمل الخسارة في صمت..

لا أعلم ما الذي أقوله.. ربما سيجارة أخرى تجذب أربطة مخي..

***

نهاية العالم.. قريبًا في جميع أنحاء الأرض..

منذ أيام تناقلت الأخبار ارتفاعًا ملحوظًا في مستوى الزلازل وفيضانات تُغرق الشوطئ في كل مكان.. وازدادت غيوم السماء وغيوم الأدمغة.. والتصق كل شخص بالمكان الذي يُريد أن يكون فيه في النهاية.. المكان الذي سيحميه من النهاية..

القائمون على حماية البلاد هم أول من يختفون في هذه الفترة، ويعطون دورهم للقوة التالية في الشارع.. الكهرباء أصبحت تُقطع لفترات طويلة.. ثم أظلمت للأبد.. محطات البنزين فرغت.. محلات الأطعمة كُسرت ونُهبت.. هناك أشخاص بالطبع قائمون على بيع آخر متع الدنيا طالما ستدفع الثمن الذي يُحددونه.. شحن بطارية الموبايل عن طريق المولد الكهربي وعلبة السجائر وكشّاف صغير كلفتني أكثر من مرتبي الشهري..

تبًا لكل شهر عملت به حرصًا من المستقبل، فأنثني لأُخبئ راتبه أسفل البلاط.. فلم يمهلني المستقبل، وفي انثنائتي أخذني فجأة من خلاف، وهو حقه..

أُشعل سيجارتي وأتخذ طريقي من (أبو العلا) متجهًا للزمالك، حاملاً كيسًا أسود صغيرًا ينغمس في سواد الشارع.. في الحقيقة أنا من هؤلاء القلة الذين ليس لهم مكان يحبون أن يبقوا فيه عند النهاية.. ولذلك قبلت أن أكون وحيدًا..

ملحوظة: في طريقي كنت أُوجّه الكشاف كل فترة لأستبصر طريقي.. كل شيء هنا مدمر إلا مكتبات الزمالك الشهيرة.. المكتبات لم تتعرض للنهب.. ربما لأن الناهبين لا يقرأون، أو لأن القراء لا ينهبون..

ألم: أتألم حين أتذكر كل كتاب جيد لن أجد فرصة لأقرأه.. ولكل فيلم صُنع بإبداع متكامل لن أشاهده.. ولكل مقطوعة موسيقية ساحرة لن يطرب لها عقلي.. ولكل لوحة فنية لن ينفرج فمي أمامها دون أن أشعر..

عقلي يستنجد بسيجارة أخرى..

***

النهاية مباشر..

أقف أمام النيل المضطرب على غير عادته.. أما حوافه فتقريبًا قد خلت إلا من قليل يتخذ النيل رفيق النهاية، ولم يعد هناك صوت إلا نعيق ذكور الضفادع التي ترى أنه وقت مناسب فعلاً لجلب نسائها.. تبًا لها!! لا بل ألف تبًا لنا نحن.. فهي قبلنا ونحن من جئنا لنُفسد عليهم حياتهم.. افعل ما تريد عزيزي ذكر الضفدع..

أعلم أنك يا عزيزي ذكر الضفدع لن تفتقد البشر كثيرًا.. وخصوصًا من وُلدوا في هذه البقعة من الأرض.. أعلم أنك أحيانًا تنعق ليلاً لتُفسد ليلهم كما أفسدوا حياتك وأماكن عيشتك.. لذا فلتفعل ما تريد يا عزيزي، ولتترك البشر المغفلين في غفلتهم يعمهون..

كنا في غفلة تجعلنا ننتظر الكائنات الفضائية أن تأتي لاحتلالنا.. في الحقيقة لم أرَ من يركن سيارته في مستنقع ثم يحاول أن يبني فيه بيتًا.. لماذا سيتوقفون بمركبتهم الفضائية ها هنا؟!

أكنا ننتظر أن ينتشر فيروس ما يُحوّل البشر لزومبي ويأكلون بعضهم البعض.. لقد صرنا زومبي من فترة لا بأس بها، انظر لعيون الناس ومشيتهم منذ عقود، ونأكل بعضنا البعض متى أتيحت الفرصة.. أما عن الفيروسات فهي أصبحت بيننا ككائن طبيعي لا ينقصها إلا مظاهرة تُطالب بحقها في الدستور..

أم كنا ننتظر الأعور الدجّال.. كم من دجّالين رأوا الحق بعين واحدة، وقالوا من اتّبعنا ضمنا له الجنة، ومن لم يتّبعنا له النار.. واتّبعهم الناس أفواجًا أفواجًا، ورفعوهم إلى منازل النبيين رغم أن (الكفر) على جباههم.. وكم من يأجوج ومأجوج تعدّوا أسوار بلادهم ليذهبوا ويعثوا في الأرض فسادًا ويأخذوا خيرات ليس لهم بها من حق.. أم ننتظر الريح قابضة أرواح المؤمنين إلى الجنة؟ ربما هي قبضت أرواحهم بالفعل وأخذتنا نحن إلى جحيم الحياة.. أم فاتتنا شمس الحقيقة التي أشرقت من مغربها وغربت من مشرقها آلاف المرات؟

أعانق سيجارتي بأطراف شفتي وأضع الكشّاف على حجر ليُبدد ما استطاع من الظلمة، وأشدّ ذلك المركب الخشبي الصغير المقلوب والموضوع أسفل الكبري.. أُعدّله على طرف النهر وأضع الكيس الأسود في أحضانه.. ألتقط الكشّاف والمجداف الوحيد الملقى في الجوار.. أقف داخل المركب وأدفع طرف النهر بالمجداف فأبتعد بالمركب بعيدًا عن الحافة..

***

حان الآن موعد نهاية الأرض، وعلى المقيمين خارجها مراعاة فروق التوقيت..

أسند ظهري إلى خشب المركب.. أفضّ الكيس الأسود، أُخرج سماعة الأذن، أوصلها بالموبايل، ومن الكيس أُخرج أيضًا كتابًا أحبه أنير صفحاته بالكشّاف الصغير..

سماعة الأذن تنقلني إلى قائمة من الألحان التي أعشقها.. أذوب في كوب تفله من حروف الكتاب وعلامات الموسيقى، لا تُخرجني إلا إطلالة السماء الحمراء وهياج النهر على هياجه الأول..

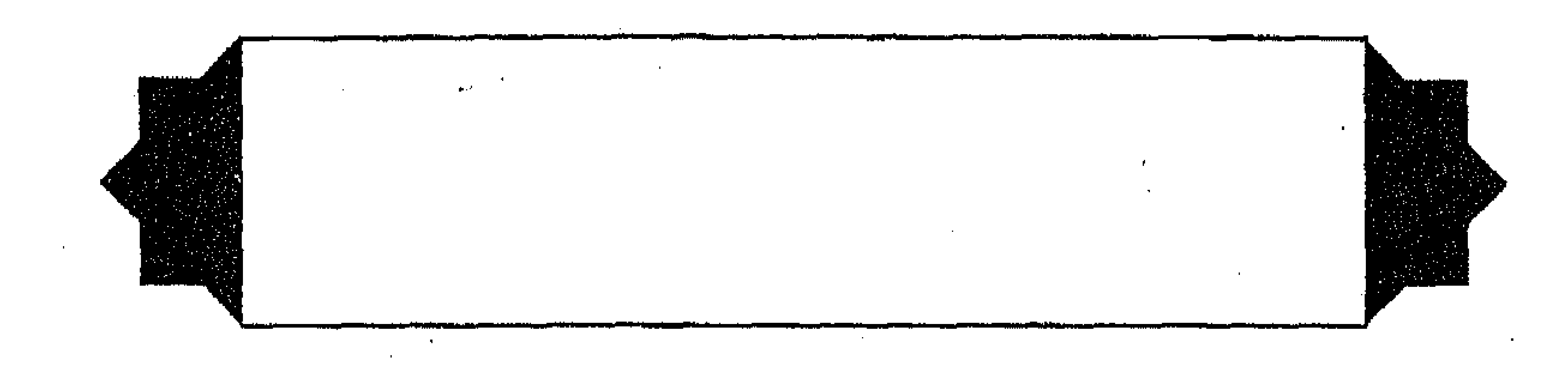
أُغمض عينيّ وأتشبث بالمركب وأُلقي بنفسي إلى أعماق الموسيقى.. أرفع صوتها أعلى وأعلى.. لتذوب الصرخات والانفجارات في غياهب الموسيقى.. أرحل وأذوب.. لن أكون هنا حين تحلّ النهاية..

وحتى الآن لم أدرك هل حلّت النهاية فعلاً أم لا!!

سنعود بعد قليل...

ربما بعد السيجارة الأخيرة في العلبة..

***



١٦

بشعرها المضفر والمنتهي بـ(توكة) حمراء تمر هي إلى (العشة) أولاً.. وتصنع حركات بيدها طاردة الدجاجات الكسالى الراقدة.. تخرج الدجاجات بسرعة ولكنها تصطدم بجسده فتُغير اتجاهها إلى فضاء السطح هاربة.. وبعد لحظات ستنشغل الدجاجات بالنبش ثم البحث عن بقعة ظليلة والعودة للرقد..

أما هو فقد ثنى جسده ليدلف.. منعه مسمار اشتبك مع طرف قميصه للحظة.. ولكنه دخل إليها في النهاية.. أذناه الدقيقتان مُحمرّتان.. ودقات قلبه تصمّ أذنه.. ولكنه قال لها..

- يالا وريني..

- بس يا (أشرف) اوعى تقول لحد.. ده سر بينا..

لم يتكلم واكتفى بهزّ رأسه مطمئنًا.. اليوم سيرى (أشرف) لأول مرة ذلك السر الأنثوي.. ذلك السر الذي شغل باله من باب الفضول، هو يعلم ما لديه وما عرف أنه لدى كل معشر الذكور.. ولكن ما لديهن؟!

رفعت طرف فستانها الذي لم ترتدِ أسفله شيئًا لتسهيل الأمر.. رفعت ورفعت.. (أشرف) يبتلع ريقه للمرة المائة.. ثم يتصنم تمامًا، وتقف هي للحظات تتأمل عينيه وتُعجبها نظرة الدهشة في عينيه. (ولا يا أشرف.. بت يا سمر)

تترك سمر طرف الفستان وتتحرك نحو أشرف بسرعة.. تصطدم قدمها بصفيحة صدئة موضوع بها مياه.. وتسقط هي وأشرف إلى جانب العشة.. لتفزع دجاجة كانت غافلة وتجري إلى السطح يتطاير ريشها..

كان المنادي (أم أشرف).. كررت النداء.. لم ترَ شيئًا، فأشرف وسمر وجدا ركنًا خفيًا يحميهما وصمتا حتى ذهبت (أم أشرف)، ولكن أشرف لم يستطع الصمت، وأخبر صديقه بالسر وأكّد على أنه سر.. ليُخبره صديقه لصديقه.. وأصبح السر علنيًا.. كانت (سمر) في البداية تسمع ودودات، ثم تعالى صوت الودودات لتتحول إلى صرخات.. صرخات سيكون لها الفضل في تغيير مسار حياة (سمر)..

***

تجري الدجاجة إلى السطح يتطاير ريشها.. يتلقف الهواء ريشة تتأرجح بين ثنياته.. حتى تسقط على أطراف شبّاك إحدى العمائر المجاورة..

***

التردد جعل الكلام يقف على لسانها رغم أنها رتبت لهذا السؤال كثيرًا.. ولكنها أخذت نفسًا وقالت وكأنها لا تهتم وهي تنفض ذلك الكرسي..

- هو يا أبلة.. الواحدة بتحس بإيه لما تحمل؟!

- بت يا شيماء.. هو اللي انتي عايشة معاه ده خالك ولا حاجة تانية؟

- خالي والله يا أبلة..

ثم أكملت عبثها بالكراسي ولسانها يستغفر.. كانت شيماء وخالها -أو هكذا كان الادعاء- جيرانًا جددًا بهذه العمارة.. ثم أكملت وهي تُحاول أن تُظهر ابتسامتها..

- يحظلك يا أبلة. انتي فهمتي إيه؟! أنا عايزة أعرف بس من باب العلم بالشيء..

وانصرفت شيماء للشبّاك تفتحه عن آخره..

في نهاية اليوم كانت من تدعوها شيماء بـ(الأبلة).. شبه نائمة على الكرسي المقابل للتلفاز، لا تعلم لِمَ فتحت عينها الآن.. كان التلفزيون على القناة الثالثة..كان يعرض (تنويهًا عن المفقودين) -وفي خلفيته موسيقى (فاطمة) لعمر خيرت- وعندما فتحت عينها كانت تطلّ عليها صورة شيماء وبجوار صورتها كُتب (زينب محمد السيد.. متغيبة من شهر.. رقم تليفون الأسرة)..

***

تسقط الريشة على أطراف شبّاك إحدى العمائر المجاورة.. حتى يُفتح الشبّاك عن آخره.. فيتلقفها الهواء حتى تتساقط في منتصف الطريق..

***

تراتيل الفجر.. هناك أقدام تقطع الشارع.. أقدام ترتدي جوربًا أسفل الصندل الجلدي مع جلباب قصير وقبعة بيضاء وذقن غير مهذبة.. هذا من الخارج، أما في داخل هذا الجلباب فهناك جسد يشتعل، وكلما برد الجسد سكب العقل الجاز وأشعل القلب النيران..

يطأ بقدمه بقعة بها ريشة تلتصق بأسفل صندله.. اسمه (جمعة)، كان يُقنع نفسه من فترة طويلة أنه يبيع الدنيا لأجل الآخرة.. وأنه سيعيش الجحيم الآن لكي لا ينتهي به المطاف جالسًا أسفل شجرة الزقوم..

ومن فترة لا بأس بها تساءل مع نفسه ولم يجد جوابًا (هل وجدت طريقي هذا من سعادة حظي.. أم من سوئه؟!).. سيتساءل اليوم حين يبدأ الإمام بدعاء الفجر (لماذا لم يستجب الله لدعائنا لفلسطين طوال هذه السنوات؟!) (أليس فينا أحد صالح يُقبل دعاؤه؟!).. هل الدعاء أصلاً قادر على تغيير القدر المكتوب في الكتاب؟ أسئلة فتحت ثقبًا سيزداد اتساعًا يومًا بعد يوم..

بعد فترة تقف هي في الأتوبيس جواره.. تُراهن بين نفسها هل تستطيع الإمساك بحبال هذا الشيخ الشاب؟ تُناوله ورقة:

- لو سمحت يا شيخ متعرفش العنوان ده فين؟!

حاول أن يغض بصره ولكنه لمح ابتسامتها وهو يتمسك بالورقة التي لم يُكتب بها إلا رقمها.. في مساء نفس اليوم سيكتب الرقم على موبايله..

وسيبقى إصبعه مترددًا على زر الاتصال حتى يدور عقرب الدقائق دورة أخرى.. ثم سيضغطه..

***

حينما دخل للمسجد خلع صندله وقام بطرق الفردتين ببعضهما.. لتتطاير الريشة.. هواء خفيف جعل الريشة تزحف على الأرض خطوات قبل أن تأتي عجلات الميكروباص وتأخذ الريشة في طريقها..

***

يقف الميكروباص وتُحاول أمة لا إله إلا الله أن تنحشر داخله.. في حركة سريعة توجّه هو إلى الكرسي المجاور للسائق واحتلّ المكان المجاور للشبّاك..

كم يكره الدائري في هذا الوقت.. ففي العادة يكون الطريق متوقفًا تمامًا.. ولكن اليوم الطريق على غير العادة.. ربما يستطيع أن يصل في ميعاده.. رفع موبايله واتصل ليؤكد ميعاده:

- ألو.. أيوة يا بوب.. أنا في الميكروباص أهو وطالع ع الدائري..لأ الطريق ماشي زي الفل.. طيب.. سلام.. سلام.. س.. س.. سلام..

بعد فترة وخلف الميكروباص بمسافة لا بأس بها..

- "هو الطريق واقف ليه؟"

- "بيقولك فيه حادثة قدام.. مقطورة دخلت في ميكروباص شالت النص اليمين كله.."

- "يا حول الله يارب.."

***

تلتصق الريشة بالميكروباص بفعل الهواء.. حتى تتباطأ سرعته، فتنتقل مرة أخرى لأحضان الهواء ليصدمها بوجه قائد موتوسيكل الجرائد.. يُلوّح بيده لتُغادر وجهه هابطة إلى أحضان جريدة ملفوفة..

يقف جوار أحد المنازل.. يوجّه الجريدة لتسقط داخل البلكونة المرادة.. وينصرف لمنزل آخر..

تطرق الجريدة باب البلكونة، ولم يكن هذا كافيًا للفت انتباهها ونشلها من بحيرة التفكير.. قامت فجأة وتوجهت إلى الكومبيوتر.. فتحت الفيسبوك ومن قائمة الرسائل فتحت رسائلها معه.. كتبت (أحمد أنا حاسة إن احنا بعدنا قوي) 25 حرف استهلكوا منها 25 دقيقة، وفي الثانية التالية ضغطت زر المسح لفترة كافية لتبييض مربع المحادثة.. ثم توجهت للقابس الكهربائي ونزعت الفيشة.. دقائق ثم أخرجت الموبايل، تحركت على الأسماء، كان اسمه في بدايات القائمة، وقبل أن تضغط زر الاتصال ألقت الموبايل.. توجهت إلى الشرفة، اصطدمت قدمها بالجريدة. فكّتها لتطير تلك الريشة.. قلبت صفحات الجريدة ثم دلفت للداخل..

تجلس في سريرها بجوار ذلك الجسد النائم، تلكزه لكزات ضعيفة لتُوقظه وهي تقول بصوت خفيض:

- أحمد..

يزوم نائمًا.. فتصمت وتأخذ غطسًا في بحيرة التفكير..

***

تطير تلك الريشة، تأخذ عدة دورات في الهواء قبل أن تهبط في صندوق الزبالة..

حتى يأتي الـ(غير مهتم).. لا يهتم بالبشر وبنظراتهم وبكلامهم.. البشر غير عقلانيين، ما الذي يهمهم فيما أرتديه، وفيما أقوله وفيما أفعله؟ (ملعون أبوهم أجمعين).. يُتمتم.. ويتوجّه لصندوق الزبالة، يعبث في محتوياته باحثًا عما يؤكل.. ينفض تلك الريشة ويأكل..

تسقط الريشة على الأرض وتلتصق بطرف عباءة..

***

بعباءتها السوداء التي لم تخلعها منذ وفاته تدخل إلى محل (بسمة للعطور)، تصطدم أثناء دخولها بذلك الشاب الذي اشترى زجاجة عطر استكمالاً لاستعداده لزفافه نهاية الأسبوع، كان القلق يزداد

بداخله مع كل يوم، لا يعلم هل استعجل قرار الزواج أم لا.. سيظلّ يسأل نفسه ذات السؤال حتى بعد الزفاف..

أما ذات العباءة فستسأل عن عطر (وان مان شو)، نفس نوع العطر الذي كان يستخدمه زوجها الراحل.. بخّات تلك الرائحة قادرة عل منحها الكثير من القوة.. الأمان.. الكمال..

تنفض بيدها طرف عباءتها لتطير تلك الريشة..

تعبر أقدامًا وشوارع وأشخاصًا وأحداثًا.. يرى عدد من الأطفال تلك الريشة فيُهرولون نحوها يحاولون الإمساك بها.. تتركهم الريشة وتصعد..

يرفع الأطفال أيديهم أعلى ويقفزون فلا يدركونها..

وتظلّ الريشة في الصعود..

لأعلى.. لأعلى..

***

على سبيل الختام

الدنيا ريشة فى هوا..

طايرة بغير جناحين..

واحنا النهاردة سوا..

وبكره هنكون فين؟

في الدنيا.. في الدنيا..

كلمات: مأمون الشناوى

الفهرس

صدر للكاتب

- (4) مجموعة قصصية عام 2011
- (الكتاب الأصفر) أدب ساخر عام 2014



Noon_publishing@yahoo.com
ت -02 35860372- 011-27772007

مجموعة قصصية رائعة، جعلتني أحلق معها.

أشكرك على متعة القراءة التي منحتني إياها بهذه السطور الجميلة.

أشرف العشماوي

سِفر التَحليق

في الحقيقة لا يوجد الكثير لأخبرك به هنا..

ولكن هناك هذا الاتفاق..

أنك ما إن فتحت صفحات السفر وبدأت الرحلة بين

تقبل أن تكون شريكاً حقيقياً في هذه الرحلة، ولـ

مشاهد..

فهل تقبل؟



